



شرح الأربعة

في حقوق رب العالمين

تأليف

الشيخ أنيس بن ناصر المصعبي

شرح

محمد بن سعيد ابن طوق المري



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين^١.

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ تَوْحِيدَ اللَّهِ وَالْقِيَامَ بِحَقِّهِ هُوَ الْغَايَةُ الَّتِي خُلِقَ لَهَا الْخَلْقُ، وَاللَّهُ جَلَّالَهُ هُوَ الْعَظِيمُ، فَالْعِلْمُ بِهِ وَبِحَقِّهِ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ، وَالْحَدِيثُ عَنْ ذَلِكَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ حَدِيثٍ، وَهُوَ جَلَّالَهُ الْأَكْبَرُ، فَالْعِلْمُ بِهِ وَبِحَقِّهِ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ، وَالْحَدِيثُ عَنْ ذَلِكَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ حَدِيثٍ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْجَمِيلُ، فَالْعِلْمُ بِهِ وَبِحَقِّهِ أَجْمَلُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ، وَالْحَدِيثُ عَنْ ذَلِكَ أَجْمَلُ مِنْ كُلِّ حَدِيثٍ، وَشَرَفُ الْعِلْمِ مِنْ شَرَفِ الْمَعْلُومِ، وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَشْرَفُ مَعْلُومٍ، فَالْعِلْمُ بِهِ أَشْرَفُ الْعُلُومِ.

وَمَنْ جَهِلَ حَقَّ اللَّهِ فَمَاذَا عِلِمَ! وَمَنْ فَقَدَ اللَّهَ فَمَاذَا وَجَدَ!

وَالنَّجَاةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّمَا عُלِّقَتْ عَلَى سَلَامَةِ الْقَلْبِ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩] وَالْقَلْبُ السَّلِيمُ هُوَ الَّذِي صَلَحَ اعْتِقَادُهُ وَاسْتَقَامَ تَوْحِيدُهُ وَسَارَ عَلَى نَهْجِ النَّبِيِّ ﷺ.

فَمَنْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ هِمَّةً لَتَلْقَى هَذَا الْعِلْمَ فَلْيَبْشِرْ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ تَوْفِيقِ اللَّهِ لَهُ وَمِنْ عِلَامَةِ إِرَادَةِ اللَّهِ بِهِ الْخَيْرِ.

^١ أصل هذه الأوراق شرح صوتي على كتاب الأربعين في حقوق رب العالمين كان في شهر صفر لعام ١٤٤٦ هـ، وقد اطلع الشارح على هذه الأوراق قبل نشرها فراجعها وأعاد صياغة مواضع يسيرة منها بما يناسب الكتاب المقروء.

(رابط الشرح الصوتي) (رابط آخر للشرح الصوتي) (رابط الشرح الصوتي على اليوتيوب).

ونحن في زمن متأخر تشتدُّ فيه الغربة على أهل السُّنة، وقد كثرت فيه الفتن والشواغل والصوارف، والمخرج من هذه الفتن هو بتوفيق الله في العِلْم الشرعيّ، عِلْم الكتاب والسُّنة، وأعلى ذلك وأرفعُه وأسناه علم الاعتقاد، فليُشَمِّر من يريد نجاته عن ساعد الجدِّ في تحصيل هذا العلم فإنَّه إذا كان مهما في كل زمن، فهو في هذا الزمن أهم.

وهذه مدارس لكتاب: "الأربعين في حقوق رب العالمين" لفضيلة الشيخ أنيس بن ناصر المصعبي حفظه الله وأدام نفعه وأجرى الخير على يديه، وقد جمع فيه أحاديث من سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- في توحيد العبادة، وهذا هو المقصود أصالة بوضع الكتاب، ثم ذكر شيئاً من حقوق الرب سبحانه وتعالى في أسمائه وصفاته، وأتبعه بذكر بعض حقوق نبينا ﷺ لأنَّ العبادة لا تصحُّ إلا بمتابعته، وبذكر بعض حقوق الصحابة -رضي الله عنهم وأرضاهم- الذين نقلوا لنا الإيمان والتوحيد.

وعِدَّة ما ذَكَرَ من أحاديث تسعة وثلاثون حديثاً، سماها أربعين بجبر الكسر، وكلُّها ثابتة عن النبي ﷺ.

وقد رُوِيَ في فضل مَنْ حَفِظَ على الأمة أربعين حديثاً من رواية جمع من الصحابة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: (مَنْ حَفِظَ على أُمَّتِي أربعين حديثاً بَعَثَهُ اللهُ يومَ الْقِيَامَةِ في زُمْرَةِ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ) وفي رواية: (بَعَثَهُ اللهُ فقيهاً عالماً) وفي رواية أبي الدرداء: (وَكُنْتُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَافِعاً وَشَهِيداً) وفي رواية ابن مسعود: (قِيلَ لَهُ ادْخُلْ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ) وفي رواية ابن عمر: (كُتِبَ فِي زُمْرَةِ الْعُلَمَاءِ وَحُشِرَ فِي زُمْرَةِ الشُّهَدَاءِ) وجماهير الحفاظ على أَنَّهُ حديث ضعيف وإن كَثُرَتْ طرقه بل حُكي على تضعيفه الاتفاق، لكن التَّصنيف في ذلك داخل في قوله ﷺ: (نَضَرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا) وقد صنف في جمع أربعين حديثاً خلائق لا يُحْصَوْنَ من الأئمة الأعلام وحُفَظَ الإسلام من المتقدمين والمتأخرين، فالتصنيف في الأربعين هو اقتداء بهم وسلوك لسبيلهم.

والمقصود بهذه المدارس الوقوف مع مقاصد هذه الأحاديث، والتحقق بالحقائق الإيمانية لما تضمنته من كلام رسول الله ﷺ، فيترقى بهذا العبد في مقامات العبودية التي هي الغاية التي شمر لها المشمرون، ويزداد فهماً عن الله ورسوله في أعظم أبواب الدين وهو توحيد الله ﷻ.

الحديث الأول

عَنْ مُعَاذٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: كُنْتُ رَدَفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟»، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ، فَيَتَكَلَّمُوا» متفق عليه.

قوله: (كنت ردف النبي ﷺ على حمار) الردف والرديف: هو الراكب خلف الراكب، أي كنت راكباً خلفه ﷺ.

قوله: (فقال: «يا معاذ، هل تدري حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟») سأل النبي ﷺ هل تعرف ما يستحقه الله -عز وجل- على عباده؟ وما الذي للعباد على الله مما أحقه على نفسه؟ وهذا من حسن تعليمه ﷺ فإن التعليم بالسؤال فيه استثارة ذهن المتلقي وجلب انتباهه لما يلقى له.

قال: (قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً») هذا توحيد العبادة، والتوحيد ثلاثة أقسام:

القسم الأول: **توحيد الربوبية** وهو إفراد الله بأفعاله من خلق ورزق ومليك وتدبير ونحو ذلك من أفعاله التي هو مختص بها لا شريك له فيها.

القسم الثاني: **توحيد الألوهية** وهو إفراد الله بالعبادة، أي بأفعال العباد، والعبادة منها ما يكون بالقلب كالمحبة والخوف والرجاء، ومنها ما يكون باللسان كالدعاء والاستغاثة، ومنها ما يكون بالجوارح كالذبح والركوع والسجود، وكلها يجب على العباد أن يَخُصُّوا الله تعالى بها وأن لا يجعلوا له فيها شريكاً، فإذا توجَّه العبد بهذه العبادة لله لا لغيره كان مُوحِّداً إِيَّاه بتوحيد الألوهية.

القسم الثالث: **توحيد الأسماء والصفات** بإفراد الله بما له من الأسماء الحسنى والصفات العلا، والواجب في هذا الباب إثبات ما أثبتته الله لنفسه وأثبتته له رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل. ودليل هذا التقسيم الاستقراء التام لأدلة الكتاب والسنة. والأدلة في ذلك على نوعين:

النوع الأول: أدلة في كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة على حدة.

فتوحيد الربوبية هو في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

وتوحيد الألوهية هو في مثل قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩] وقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ [النساء: ٣٦].

وتوحيد الأسماء والصفات هو في مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

والنوع الآخر: أدلة تجمع هذه الأنواع في سياق واحد كقوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ [مريم: ٦٥].

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ توحيد الربوبية.

﴿فَاعْبُدْهُ وَأَصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ توحيد الألوهية.

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ توحيد الأسماء والصفات.

وتجد ذلك في فاتحة القرآن وخاتمته، ففي فاتحة القرآن: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[الفاتحة: ٢] فيها توحيد الألوهية لأن إضافة الحمد من العباد إليه سبحانه عبادة، والربوبية

في قوله: (رب العالمين)، والأسماء والصفات لأن من أسمائه سبحانه الرَّبُّ.

وتجده أيضا في خاتمة القرآن ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]

الربوبية مع الأسماء والصفات.

وفي قوله تعالى: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٢] الربوبية مع الأسماء والصفات.

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٣] الألوهية مع الأسماء والصفات.

ولا يكفي الإقرار بتوحيد الربوبية للدخول في الإسلام فإن الكفار الذين بُعث فيهم

رسول الله ﷺ كانوا مُقرّين بتوحيد الربوبية في الجملة ولم يُدخلهم هذا الإقرار في

الإسلام، ولهذا يأتي كثيرا في القرآن تقرير توحيد الربوبية الذي أقرّ به الكفار لإلزامهم

بالإقرار بتوحيد الألوهية، من أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضَ

وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَعِلُّهُ

مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠] وهكذا الآيات الأربع بعدها، في كلّ آية منها تقرير

توحيد الربوبية للإلزام بتوحيد الألوهية، فيقول في كلّ آية من هذه الآيات الخمس عقب

تقرير توحيد الربوبية: ﴿أَعِلُّهُ مَعَ اللَّهِ﴾ فالمعنى: أن من تفرّد بهذه الأفعال التي هي من

أفعال الله وحده يجب أن يُخصّص بالعبادة وحده، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ

خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنِّي يُؤْفِكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧] أي كيف يُصرّفون عن عبادته؟

فإقرارهم بتوحيد الربوبية يلزم منه الإقرار بتوحيد الألوهية.

قوله: **(«فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»)** فيه وجوب التوحيد.
 قوله: **(«وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»)** فيه عظيم فضل التوحيد، فمن وحّد الله سلّم من العذاب يوم القيامة وسيأتي مزيد بيانٍ لذلك إن شاء الله.
 قوله: **(«وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ»)** هذا حق أوجبه الله على نفسه تفضلاً منه - سبحانه وتعالى - لا أن العباد أوجبوا على ربهم حقاً، فالعباد أذل وأحقر من ذلك والله أجل وأعظم من ذلك، ونظيره قوله تعالى في الحديث القدسي: **(يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالُمُوا)**.

فهو حق أوجبه الله على نفسه تفضلاً منه سبحانه وتعالى، قال ابن القيم في النونية:
مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ هُوَ أَوْجَبَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ الشَّانِ
 ومذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة وسط بين من أوجبوا على الله أشياء بعقولهم، وبين من قالوا: لا يجب على الله فعل شيء، ولا يحرم عليه فعل شيء، فردّوا الأدلة التي جاءت بذلك وهدى الله أهل السنة إلى الوسط فأعملوا الأدلة جميعاً.

الحديث الثاني

عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: **«مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»** متفق عليه.

هذا حديث عظيم القدر جليل المنزلة، وهو كما قال العلماء: من أجمع أحاديث العقيدة.

قوله: **(مَنْ شَهِدَ)** أي أقرّ واعترف بقلبه ونطق بلسانه.

قوله: **(أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)** الإله: المعبود، فمعنى الجملة: لا معبود حق إلا الله، وهذه الجملة مشتملة على النفي والإثبات، نفي العبادة عمّا سوى الله وإثبات العبادة لله وحده.

قوله: **(وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ)** وحده توكيد للإثبات، لا شريك له توكيد للنفي، وهذا - كما قال أهل العلم - توكيد بعد توكيد اهتمامًا بمقام التوحيد.

قوله: **(وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ)** أي وشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وهذه الشهادة قرينة شهادة لا إله إلا الله فلا يكون الإنسان موحدًا إلا إذا شهد الشهادتين ووحد التوحيدين، التوحيد لله بالعبادة، والتوحيد لنبيه ﷺ بالاتباع.

قوله: **(وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ)** جمع له بين هذين الوصفين اللذين يقطعان الطريق على أهل التفريط والإفراط، فوصفه بالعبودية ردّ على أهل الغلو والإفراط، كالذين أضافوا له بعض خصائص الربوبية أو الألوهية التي لا تنبغي إلا لله، فهو ﷺ عبد لله لا معبود، ووصفه بالرسالة ردّ على أهل الجفاء الذين كذبوا بنبوته، أو قصّروا في اتباعه، فهو رسول من الله اصطفاه الله، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فنبينا ﷺ عبد الله ورسوله، عبد لا يعبد ورسول لا يكذب، بل يُطاع ويُتبع.

قوله: **(وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)** عيسى - عليه السلام - أحد أولي العزم من الرسل الذين هم أفضل الأنبياء والمرسلين، وفي هذه الجملة ردّ على طرفي الضلال في شأن عيسى عليه السلام، وهم اليهود والنصارى.

(وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ) ردّ على النصارى الذين غلّوا فيه وزعموا أنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

(وَرَسُولُهُ) رَدُّ عَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَكَفَرُوا بِهِ وَوَصَمُوهُ بِأَبْشَعِ الْأَلْقَابِ.

قوله: (وَكَلِمَتُهُ) أي أن الله تعالى خلقه بكلمته أي بقول (كن) لا أنه نفسه الكلمة، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وهذه مِحْنَةُ النَّصَارَى ظَنُّوا أَنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - هو الكلمة، فضلوا وقالوا: هو جزء من الله، تعالى الله عما يقولون، قال ابن القيم:

يَا قَوْمِ قَدْ غَلِطَ النَّصَارَى قَبْلُ فِي مَعْنَى الْكَلَامِ وَمَا اهْتَدَوْا لِبَيَانِ وَلَا جُلِ ذَا ظَنُّوا الْمَسِيحَ إِلَهُهُمْ إِذْ قِيلَ كَلِمَةً خَالِقٍ رَحْمَنِ

قوله: (أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ) كما قال الله تعالى: ﴿يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشِيرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ

الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

قوله: (وَرُوحٌ مِنْهُ) أي أن عيسى - عليه السلام - رُوحٌ من الأرواح التي خلقها الله، فمعنى (وَرُوحٌ مِنْهُ) أَنَّهُ صَدَرَ مِنَ اللَّهِ ابْتِدَاءً، كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجن: ١٣] فهذا لا يدل على أن ما في السماوات وما في الأرض جزء منه تعالى الله عن ذلك.

والمضافات إلى الله تعالى نوعان:

١. مضاف إلى الله تعالى من باب **إضافة المخلوق إلى الخالق**، وذلك إذا كان

المضاف عيناً قائمةً بنفسها، مثل: عبد الله، وناقة الله، وبيت الله ومنه: روح الله،

أي روحٌ من الأرواح التي خلقها الله وأضافها لنفسه تشريفاً.

٢. مضاف إلى الله تعالى من باب **إضافة الصفة إلى الموصوف**، وذلك إذا كان

المضاف وصفاً لا يقوم إلا بموصوف مثل: سمع الله، وعلم الله، وقدرة الله، فهذه

صفات لله تعالى، قال ابن القيم:

فَإِضَافَةُ الْأَوْصَافِ ثَابِتَةٌ لِمَنْ
وَأِضَافَةُ الْأَعْيَانِ ثَابِتَةٌ لَهُ
فَانْظُرْ إِلَى بَيْتِ الْإِلَهِ وَعِلْمِهِ
قَامَتْ بِهِ كِرَادَةُ الرَّحْمَنِ
مُلْكًا وَخَلْقًا مَا هُمَا سَيَّانِ
لَمَّا أُضِيفَا كَيْفَ يَفْتَرِقَانِ

قوله: (وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ) الجنة هي الدار التي أعدها الله - تعالى - لعباده المؤمنين جزاءً على إيمانهم وحسن أعمالهم، والنار الدار التي أعدها الله عقوبةً للكافرين جزاءً وفاقاً على كفرهم وسوء أعمالهم، وهما مخلوقتان موجودتان الآن، أُعِدَّتْ الجنة للمتقين وأُعِدَّتْ النار للكافرين، وهما باقيتان لا تفتيان.

وَالنَّارُ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَهُمَا
مَوْجُودَتَانِ لَا فَنَاءَ لَهُمَا

قوله: (أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ) فيه فضل التوحيد وأن من وَحَدَ الله واعتقد هذه العقائد الصحيحة أدخله الله الجنة وإن عمل ما عمل من المعاصي. ودخوله الجنة إما أن يكون ابتداءً بلا سابقة عذاب، وإما أن يكون بعد عذابه بالنار وذلك إذا كانت له ذنوب وشاء الله أن يُعَذِّبَ بها، ثم يكون مآله إلى الجنة. ففي الحديث فضل التوحيد وأنه سببٌ لدخول الجنة وتكفير السيئات.

الحديث الثالث

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى نَحْوِ الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقْرَأُوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ». متفق عليه.

هذا الحديث فيه وصية النبي ﷺ لمعاذ - رضي الله عنه - حين بعثه إلى اليمن داعياً ومعلماً وقاضياً ووالياً وجابياً.

قوله: **(إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)** قال له ذلك حتى يكونَ على بَيِّنَةٍ، ويعرفَ الواقع الذي يواجهه، فاليمن تعاقبَ عليها ممالكُ عدة، ففيها أديان مختلفة، فيها اليهود والنصارى والمشركون، وفيها من أسلم.

قوله: **(فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى)** فيه أنَّ أَوَّلَ واجبٍ على العباد هو توحيد الله.

أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى الْعَبِيدِ مَعْرِفَةُ الرَّحْمَنِ بِالتَّوْحِيدِ

هذا الذي عليه أهل السُّنَّة خلافاً لأهل الكلام الذين قالوا: أَوَّلُ واجبٍ هو النَّظَرُ أو القصدُ إلى النظرِ أو الشَّكِّ ثم اختلفوا في مَنْ بلغ سنَّ التكليف ثم مات قبل النظر أو في أثناء النظر أيحكم له بالإسلام أم بالكفر؟ إلى آخر فلسفتهم التي اختلفوا فيها، والسُّنَّة والإجماع على أن أَوَّلَ واجبٍ على العباد هو التَّوحيد.

وفي الحديث أن التَّوحيدَ أَوَّلُ ما يدعى إليه، قال - صلى الله عليه وسلم - : **(فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى)**، وقد ورد بلفظ: **(فليكن أَوَّلَ ما تدعوهم إليه عبادة الله)** وورد بلفظ: **(فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله)** وكلها في الصحيح، ولا شك أن النبي ﷺ قال لفظاً واحداً منها، وبقية الألفاظ من الرواية بالمعنى، وهذا يدلُّ على اتحاد معنى توحيد الله، وعبادة الله، وشهادة أن لا إله إلا الله عند الصحابة والسلف.

قال: **(فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ)** أي انقادوا ووحَّدوا الله **(فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ)** بدأ بعد التوحيد بأهمِّ العبادات العمليَّة، وهي الصلوات الخمس، وفيه التدرُّج في الدعوة والبدء بالأهم.

قال: (فَإِذَا صَلَّوْا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ غَيْرِهِمْ فَرُدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ) ثنى بأهم العبادات المالية وهي الزكاة.

قال: (فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ) أي تجنب أموالهم النفيسة، كأن يكون على أحدهم زكاة من الإبل، فليس للجابي أن يختار كرائم الإبل ويدع رديئها لصاحب المال، بل يأخذ من الوسط.

وفي الحديث حُجِّيَّةُ خبر الآحاد في مسائل الاعتقاد، لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ بعث معاذًا إلى أهل اليمن ليبلغهم الدين ويدعوهم إلى توحيد الله، وقد اتفق أهل السنة والجماعة على حجية خبر الآحاد في مسائل الاعتقاد.

الحديث الرابع

عن جابر بن عبد الله -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهِ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارَ» رواه مسلم.

قوله ﷺ: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» الشُّرْكُ جَعْلُ شَيْءٍ مِنْ حَقِّ اللَّهِ لغيره، وهو نوعان، شُرْكٌ أَكْبَرُ يزول معه أصل الإيمان، وشُرْكٌ أَصْغَرُ يزول معه كمال الإيمان. فالشرك الأكبر كأن يصرف عبادةً لغير الله من صَنَمٍ أو جِنِّيٍّ أو وَلِيٍّ يدعو من دون الله. والشرك الأصغر له صُورٌ منها:

- قول: ما شاء الله وشئت فيعطف بالواو التي تقتضي التسوية.
- الحَلْفُ بغير الله كقول بعض الناس: والنَّبِيُّ، والكعبة، والأمانة ونحو ذلك من الألفاظ.
- أَنْ يَتَّخِذَ سَبَبًا لَمْ يجعله الله سَبَبًا، كمن يربطُ في عَضْدِهِ خِيطًا، أو يضعُ في يده حَلَقَةً يستدفع بها العين.

وبين الشرك الأكبر والأصغر فروق:

الفرق الأول: أن الشرك الأكبر مُخْرِجٌ مِنَ الْمِلَّةِ، أمَّا الأصغرُ فلا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ.

الفرق الثاني: أن الشرك الأكبر صاحبه مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، أمَّا الأصغرُ فصاحبه لا يُخَلَّدُ

فِي النَّارِ حَتَّى لَوْ دَخَلَهَا بِسَبَبِ رُجْحَانِ سَيِّئَاتِهِ عَلَى حَسَنَاتِهِ، فَإِنَّ مَالَهُ إِلَى الْجَنَّةِ.

الفرق الثالث: أن الشرك الأكبر لا يغفره الله أبدًا لمن مات عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ

اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] أمَّا الشرك الأصغرُ فقليل: إِنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَغْفِرَهُ اللَّهُ

تعالى كما يغفر الكبائر، وقيل: لا يغفره الله أبدًا. وتوضيح ذلك: أن العلماء اختلفوا في

الشرك الذي لا يُغْفَرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] هل هو

شاملٌ للأكبر والأصغر؟ أو هو خاصٌّ بالأكبر؟ على قولين، وجه القول بأنَّه شاملٌ

للأكبر والأصغر أن الفعل (يُشْرَكَ) فِي الْآيَةِ وَقَعَ فِي سِيَاقِ النِّفْيِ، فَيُفِيدُ الْعُمُومَ لِأَنَّ (أَنْ

يُشْرَكَ) يُؤَوَّلُ بِمَصْدَرٍ، فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ إِشْرَاكَ بِهِ) وَهُوَ نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ

النفي فيفيد العموم، فعلى هذا: الشرك كله لا يدخل تحت المشيئة لعظم خطيئة الشرك،

والقول الآخر: أن المراد بالشرك في الآية الأكبر، فيكون من العام الذي أريد به

الخصوص، وهو مذهب الجمهور، وآيات الشرك الواردة في القرآن كثيرًا ما يُرادُ بها

الأكبر دون الأصغر مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ

وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] فهذه الآية لا يدخل فيها الشرك

الأصغر بالإجماع، قالوا: فكذلك لا يدخل الأصغر في آية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ

بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] فالأكبر لا يُغْفَرُ بِالْإِجْمَاعِ لِمَنْ مَاتَ عَلَيْهِ، وَأَمَّا الْأَصْغَرُ فَفِيهِ الْخِلَافُ

السَّابِقُ، وَهَذَا يُوجِبُ أَنْ يَحْذَرَ الْعَبْدُ، وَأَنْ يَخَافَ مِنَ الشَّرِكِ كُلِّهِ، وَالْمَغْفِرَةُ الَّتِي الْكَلَامُ

عنها هنا هي لِمَنْ مَاتَ عَلَى الشَّرِكِ، أَمَّا الْمَغْفِرَةُ الَّتِي تَحْصُلُ لِلْعَبْدِ بِالتَّوْبَةِ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا

تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَغُفِرَ لَهُ ذُنُوبُهُ وَلَوْ كَانَ شَرَكًا أَكْبَرَ.

قوله ﷺ: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ» هذا الدُّخُولُ إمَّا أَنْ يَكُونَ دُخُولًا أَوَّلِيًّا، وإمَّا أَنْ يَكُونَ الدُّخُولُ مَالِيًّا والدُّخُولُ الْمَالِيُّ هُوَ فِي حَقِّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُ بِكِبِيرَتِهِ فَإِنَّهُ يَصِيرُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْجَنَّةِ.

قوله ﷺ: «وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارَ» دُخُولٌ مِنْ أَشْرَكِ النَّارِ عَلَى نَوْعَيْنِ:

- دُخُولٌ إِلَى الْأَبَدِ فَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا أَبَدًا، وَهَذَا فِي الْمُشْرِكِ شَرَكًا أَكْبَرَ.
- وَدُخُولٌ إِلَى أَمَدٍ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا، وَهَذَا فِي مَنْ أَشْرَكَ شَرَكًا أَصْغَرَ لَمْ يَغْفِرْهُ اللَّهُ رَجَعَ مَعَ سَيِّئَاتِهِ فَدَخَلَ النَّارَ، فَهَذَا يَخْرُجُ مِنْهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَمَالَهُ إِلَى الْجَنَّةِ.
- فَالشُّرْكُ شَأْنُهُ عَظِيمٌ وَخَطَرُهُ جَسِيمٌ، فَهُوَ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْأَوْبَةِ الَّتِي يَقُومُ النَّاسُ لَهَا وَيَقْعُدُونَ، وَيَبْذُلُونَ الْغَالِي وَالنَّفِيسَ فِي دَفْعِهَا، وَقَدْ خَافَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا فَقَالَ: (أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشُّرْكَ الْأَصْغَرَ) فَسُئِلَ عَنْهُ فَقَالَ: (الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ - أَيْ لِلْمُرَائِينَ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاوُونَ فِي الدُّنْيَا فَاَنْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً!)

وإبراهيم عليه السلام وهو الموصوف بتحقيق التوحيد كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] وَهُوَ الَّذِي كَسَرَ الْأَصْنَامَ يَخَافُ مِنَ الشُّرْكَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى بَنِيهِ وَيَقُولُ: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] فَإِذَا كَانَ هَذَا حَالُ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَغَيْرُهُ بِالْخَوْفِ مِنَ الشُّرْكَ أَوْلَى، قَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ: "وَمَنْ يَأْمَنُ الْبَلَاءَ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ!" وَقَدْ عَلَّقَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ بِصِغَةِ الْجَزْمِ قَوْلَ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ: "أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ" وَإِذَا كَانَ الشُّرْكُ يُخَافُ مِنْهُ فِي زَمَنِ سَابِقٍ فَإِنَّهُ فِي هَذَا الزَّمَنِ أُحْرَى وَأَجْدَرُ أَنْ يُخَافَ، لِأَنَّ الشُّبُهَةَ أَضَحَّتْ أَقْرَبَ مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ، تَنْتَشِرُ فِي الْقَنَوَاتِ وَالْكَتَبِ وَفِي وَسَائِلِ التَّوَاصُلِ، وَقَدْ تَعَدَّدَتْ صُورَةُ الشُّرْكَ فَالْمَقَامُ عَظِيمٌ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ

النبي ﷺ قال: (بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا) هكذا في خلال ساعات تأتي شبهة تصله عن طريق شيء من وسائل التواصل فيحصل ما أخبر به النبي ﷺ، فالشأن خطير ومُخيف، لذا على العبد أن يتهل إلى الله بصدق أن يُثبته ويُجنبه الشرك، وأن يخاف على نفسه من الشرك كما كان خليل الله إبراهيم عليه السلام، وكما كان الصحابة يخافون على أنفسهم الشرك الأكبر، ومن الناس من يظن أنه بمنأى ومعزل عن الشرك، وأنه لا يمكن أن يقع فيه، وهذه الطمأنينة أدت إلى أن يستزل الشيطان من استزل إلى الوقوع في صور من الشرك مختلفة، وقد قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: (أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ) فقال له من شاء الله أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من ديب النمل يا رسول الله؟ قال: (قُولُوا لِلَّهِمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ).

وكُلَّمَا عَظُمَ تَوْحِيدُ الْعَبْدِ، عَظُمَ خَوْفُهُ مِنَ الشِّرْكِ، فعلى العبد أن يحذر الشرك على نفسه، وأن يفزع إلى ربه في حفظه، وأن يُكثر من سؤال الله أن يُثبته على التوحيد وأن يُجنبه الشرك.

الحديث الخامس

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، وَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأَفُقَ، فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ أُمَّتِي، فَقِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأَفُقَ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا،

**فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ، فَقِيلَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ**» فَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ، فَتَذَكَّرَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: أَمَّا
نَحْنُ فَوَلَدْنَا فِي الشَّرْكِ، وَلَكِنَّا آمَنَّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ هُمْ أَبْنَاؤُنَا، فَبَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ
فَقَالَ: **«هُمْ الَّذِينَ لَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتُتُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»** فَقَامَ
عُكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **«نَعَمْ»** فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟
فَقَالَ: **«سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ»**. متفق عليه.

في الحديث فَضْلٌ مَن حَقَّقَ التَّوْحِيدَ، وهي درجةٌ أَخْصُ مِنْ مجرد الاتصاف به،
وتحقيقُ التَّوْحِيدِ يكونُ باجتنابِ الشُّرْكِ والبدعِ والمعاصي، وهذا هو تحقيقُ التَّوْحِيدِ
الواجبِ، وثُمَّ درجةٌ أَعْلَى، وهي تحقيقُ التَّوْحِيدِ المستحبِّ، وهي أن يكون القلبُ
متوجهًا إلى الله تعالى بِكُلِّيتِهِ مُعْرِضًا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَفَضْلُ تحقيقِ التَّوْحِيدِ: دخولُ
الجنةِ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ.

وقوله ﷺ في الحديث: **(وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ)** هذا
فضلهم، وقد نالوا هذا الفضلَ بتحقيقِهِمُ للتَّوْحِيدِ، والدَّالُّ على تحقيقِهِمُ للتَّوْحِيدِ
الصفاتُ التي ذَكَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِهَا في قوله: **«هُمْ الَّذِينَ لَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا
يَكْتُتُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»**

الوصفُ الأوَّلُ: عدمُ الطَّيِّرَةِ، قال ﷺ: **(هُمْ الَّذِينَ لَا يَتَطَيَّرُونَ)** والطَّيِّرَةُ: التَّشَاؤُمُ، كان
أَحَدُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا فَرَأَى بُومَةً أَوْ غُرَابًا صَرَفَهُ ذَلِكَ عَنْ سَفَرِهِ تَشَاؤُمًا مِنْهُ،
وظَنًّا بِأَنَّ هَذِهِ السَّفَرَةَ غَيْرُ مَحْمُودَةٍ الْعَوَاقِبِ بِسَبَبِ مَا رَأَاهُ، فَهَذَا مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لِأَنَّهُمْ
أَثَبُوا سَبَبًا لَمْ يَجْعَلْهُ اللَّهُ سَبَبًا، فَلَا شَأْنَ لِلطَّيُورِ بِالْأَقْدَارِ، وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ حَدِيثُ النَّهْيِ
عَنِ الطَّيِّرَةِ.

الوصف الثاني: عدم طلب الرقية قال ﷺ: **(وَلَا يَسْتَرْقُونَ)** السّين للطلب، أي لا يطلبون من أحد أن يرقيهم إذا أصيبوا بشيء، وإنما يتوجهون إلى الله تعالى بالدعاء، أو يرْقُونَ أَنْفُسَهُمْ بأنفسهم، وذلك لكمال توكّلهم على الله عز وجل، وقد روي في بعض طرق مسلم **(لَا يَرْقُونَ)** وهي شاذة لا تثبت.

ومن لطيف ما يُذكر هنا ما أخرجه أبو نُعَيْمٍ في الحلية عن سعيد بن جبيرة راوي هذا الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال سعيد بن جبيرة: "لدغني عقرب فأقسمت عليّ أمّي أن أسترقي فأعطيت الراقي يدي التي لم تلدغ، وكرهت أن أحشها" جمع - رحمه الله - بين ألا يسترقي فلم يجعله يرقيه من هذه اللدغة، وبين برّ أمّه وعدم تحنيثها. وقد حمّل جمع من الشراح الحديث على الرقية الممنوعة.

الوصف الثالث: عدم الاكتواء، قال ﷺ: **(وَلَا يَكْتَوُونَ)** والكَيُّ أن تُحمى حديدة بالنار ثم توضع على العضو العليل فيحصل الشفاء بإذن الله، وقد قال ﷺ: **(إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ فِي شَرْبَةٍ عَسَلٍ أَوْ شَرْطَةِ مَحْجَمٍ أَوْ لَذْعَةٍ مِنْ نَارٍ، وَمَا أَحَبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ)** وفي رواية: **(وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ)** وهذا النهي حملة العلماء على الكراهة، لكن إذا تعيّن الكي سبباً للعلاج جاز وزالت الكراهة.

الوصف الرابع: التوكّل على الله، قال ﷺ: **(وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)** وهذا هو الأصل الجامع الذي تفرّعت عنه خصالهم، فهو لاء السبعون ألفاً تركوا التطيّر والاسترقاء والاكتواء، وأخذوا بأعظم الأسباب وهو التوكّل على الله، ومن التوكّل على الله: أن يلحّ العبد على ربّه بالدعاء، وأن يتوجّه إليه بكلّيته موقناً بأنّه لا يجلبُ الخير إلّا هو، ولا يكشفُ الضرّ إلّا هو سبحانه وتعالى، فمن أحبّ أن يندرج في زمرة السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فيُحقّق هذه الصفات التي بيّنها النبي ﷺ، ولا يلزم من ذلك ألا يتداوى، لأنّ مفهوم التداوي أوسع من الرقية والكي، فالتداوي

مُسْتَحَبٌّ لِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ بِهِ، هَذَا الْأَصْلُ فِيهِ، بَلْ قَدْ يَصِيرُ وَاجِبًا وَذَلِكَ إِذَا كَانَ تَرْكُهُ يُؤْدِي إِلَى الْهَلَاكِ.

وَقَدْ جَاءَ الْعَدْدُ فِي الْأَدْلَةِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَضْرُبٍ:

- **الْأَوَّلُ:** أَنَّهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، وَدَلِيلُهُ حَدِيثُ الصَّحِيحِينَ هَذَا.
- **الثَّانِي:** أَنَّهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَمَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، ثَبَتَ هَذَا عِنْدَ أَحْمَدَ، فَيَكُونُ الْعَدْدُ قُرَابَةَ خَمْسَةِ مِلايينَ.
- **الثَّالِثُ:** أَنَّهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَمَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا وَثَلَاثُ حِثَايَاتٍ مِنْ حِثَايَاتِ رَبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ، ثَبَتَ هَذَا عِنْدَ أَحْمَدَ وَالتِّرْمِذِيِّ وَابْنِ مَاجَهَ.
- **الرَّابِعُ:** أَنَّهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَمَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَرَدَّ هَذَا عِنْدَ أَحْمَدَ فِي الْمُسْنَدِ وَهُوَ ضَعِيفٌ لَا يَثْبُتُ.

الحديث السادس

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ.

قَدَّمَ الْمُؤَلِّفُ - وَفَّقَهُ اللَّهُ - بِأَحَادِيثَ عَظِيمَةٍ.

فَالْحَدِيثُ الْأَوَّلُ فِيهِ وَجُوبُ التَّوْحِيدِ (حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا).

وَالْحَدِيثُ الثَّانِي فِيهِ فَضْلُ التَّوْحِيدِ (أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ).

وَالْحَدِيثُ الثَّالِثُ فِيهِ الدَّعْوَةُ إِلَى التَّوْحِيدِ (فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى).

والحديث الرابع فيه الخوف من الشرك (ومن لقيه يُشرك به دخل النار).

والحديث الخامس فيه فضل من حقق التوحيد (يدخلون الجنة بغير حساب).

ثم إن الدعوة إلى التوحيد لا يكفي أن تكون مُجملَةً، بل لا بُدَّ فيها من التفصيل والبيان، فشرع من هذا الموضع يذكر شيئاً من تفاصيل مسائل التوحيد ومن أفراد ما يُضادُّه، والشَّيْءُ يُتَبَيَّنُ وَيُعْرَفُ بِضَدِّهِ كما قال المتنبي: (وبضدها تَبَيَّنُ الْأَشْيَاءُ).

فمِمَّا يُضَادُّ التَّوْحِيدَ تَعْلِيقُ التَّمَائِمِ الَّذِي أوردَ لَهُ هذا الحديث.

قال ﷺ: (مَنْ عُلِقَ تَمِيمَةٌ) التَّمِيمَةُ: خَرَازَاتُ كَانَ الْعَرَبُ يُعَلِّقُونَهَا عَلَى أَوْلَادِهِمْ يَتَّقُونَ بِهَا الْعَيْنَ، وَكُلُّ مَا عُلِقَ بِقَصْدٍ دَفْعِ الْبَلَاءِ قَبْلَ نَزْوِلِهِ أَيْ بِقَصْدٍ أَلَّا يُصَابَ مَثَلًا بِسِحْرِ أَوْ عَيْنٍ، أَوْ بِقَصْدٍ رَفْعِهِ بَعْدَ نَزْوِلِهِ أَيْ لِتَكُونَ سَبَبًا لِإِزَالَةِ سِحْرِ مَوْجُودٍ أَوْ عَيْنٍ أَوْ مَسٍّ أَوْ مَرَضٍ، فَكُلُّ مَا عُلِقَ بِقَصْدٍ دَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ رَفْعِهِ فَهُوَ تَمِيمَةٌ، كَانَتْ مِنْ خَرَزٍ أَوْ خَيْطٍ أَوْ وَرَقٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَسَوَاءٌ عُلِّقَتْ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ عُلِّقَتْ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الصَّبِيَّانِ أَوْ مِنَ الْبَهَائِمِ، أَوْ عَلَى الدَّوَابِّ وَالسَّيَّارَاتِ، أَوْ عَلَى أَبْوَابِ الْبُيُوتِ.

وَقَدْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُعَلِّقُونَ السُّيُورَ وَالتَّمَائِمَ فِي رِقَابِ الْبَهَائِمِ، وَمُرَادُهُمْ كَمَا يَزْعُمُونَ أَنَّ ذَلِكَ يَكْسِرُ الْعَيْنَ وَيَرُدُّهَا، وَأَمَّا الْيَوْمَ فَبَعْضُهُمْ يُعَلِّقُ صُورَةَ كَفٍّ، وَبَعْضُهُمْ يُعَلِّقُ صُورَةَ نَعْلِ صَغِيرَةٍ، وَبَعْضُهُمْ يُعَلِّقُ جُلُودَ الْحَيَوَانَاتِ مِنْ تَمَاسِيحٍ وَغَيْرِهَا، وَالنَّاسُ يَتَفَنَّنُونَ فِي هَذَا، فَصُورُ هَذَا النَّوعِ مِنَ الشَّرِكِ لَا تَنْتَهِي، وَيَجْمَعُهَا أَنْ يُلْبَسَ شَيْءٌ أَوْ يُعَلَّقَ وَيُتَوَهَّمُ أَنَّهُ سَبَبٌ لِدَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ رَفْعِهِ، وَهُوَ مِنَ الشَّرِكِ الْأَصْغَرِ، وَمُوجِبُ كَوْنِهِ شَرْكَاً أَصْغَرًا: اعْتِقَادُ السَّبَبِيَّةِ فِيمَا لَيْسَ سَبَبًا شَرْعِيًّا وَلَا قَدَرِيًّا، وَالْقَاعِدَةُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ مَنْ اتَّخَذَ سَبَبًا لَمْ يَجْعَلْهُ اللَّهُ تَعَالَى سَبَبًا شَرْعًا وَلَا قَدَرًا فَقَدْ أَشْرَكَ الشَّرِكَ الْأَصْغَرَ.

وَالْأَسْبَابُ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى الْمَقْصُودِ نَوْعَانِ: أَسْبَابٌ شَرْعِيَّةٌ وَأَسْبَابٌ قَدَرِيَّةٌ.

- فالأسباب الشرعية هي التي دلّ الشرع على نفعها كالرقية بالقرآن، وكماء زمزم وغير ذلك مما ثبت نفعه بالقرآن أو بالسنة.
 - والأسباب القدرية هي الأسباب التي ثبت نفعها بطريق التجربة وعادة الناس، كالأدوية فإنها سبب للشفاء.
- فمن اتخذ سبباً لم يجعله الله سبباً لا شرعاً ولا قدراً ففعله شرك أصغر.

والناس في مسألة الأسباب طرفان ووسط:

- فمن الناس من **يلغي** الأسباب بالكليّة، وهؤلاء هم الجبريّة ومن تأثر بهم، يرون عدم تأثير الأسباب، وهذا قدح في الشرع وقدح في العقل، فإنه ما من عاقل إلا ويدرك تأثير الأسباب، فلعطشان إذا شرب الماء ارتوى، والجائع إذا أكل الطعام شبع، والمريض إذا استعمل الدواء شفي، والمتعب إذا أوى إلى فراشه ونام استراح، ولا ينازع في هذا عاقل، ولهذا كان من ينكر تأثير هذه الأسباب ويزعم أن الأثر يحصل عندها لا بها أضحكة للعالمين، فمن عطّل الأسباب فقد عطّل العقل والنص.
- وقابلتهم طائفة **غلّت** في الأسباب حتى اعتقدوا أن كل شيء يفسر تفسيراً مادياً، ولم يلتفتوا إلى إرادة الله تعالى ومشيئته، وهؤلاء هم الماديون من الملاحدة والفلاسفة وغيرهم.

- وهدى الله أهل السنة والجماعة إلى **إثبات الأسباب الحسية والشرعية**، لكن قالوا إنها لا تؤثر بذاتها، بل بإذن الله تعالى، فأخذوا بها مع التعلّق بمسبب الأسباب وهو الله سبحانه وتعالى.

الحديث السابع

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ

الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتَّوَلَّةَ شِرْكٌ» رواه أبو داود.

الرُّقَى في الحديث محمولةٌ على الرُّقَى الشَّرِكِيَّةِ؛ لأنَّ (أل) فيها للعهد، والمعهودُ في الجاهلية هو الرُّقَى الشَّرِكِيَّةِ، فالرُّقَى المشتَمَلَةُ على الشَّرِكِ هي الممنوعةُ المذكورةُ في الحديث، أمَّا الرُّقَى الخاليةُ من الشَّرِكِ فإنَّها جائزةٌ، يدلُّ لذلك ما في صحيح مسلم عن عوف بن مالك - رضي الله عنه - أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: (لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ). والتَّمَائِمُ في الحديث محمولةٌ على التَّمَائِمِ المُشْتَمَلَةِ على الشَّرِكِ، كمن تَعَلَّقَ حَلَقَةً أو خَيْطًا أو خَرَزًا لدفعِ بلاءٍ أو رفعِهِ، وهو كما سبقَ من الشَّرِكِ الأصغرِ، لكن إذا اعتقد أنَّها تنفعُ على وجهِ الاستقلالِ فهذا من الأكبرِ، وأمَّا إذا كانت من القرآن أو من الأدعية النبوية فهي محلُّ خلافٍ، قال الشيخ حافظ الحكمي في سلم الوصول:

وَفِي التَّمَائِمِ الْمُعَلَّقَاتِ إِنَّ تِلْكَ آيَاتِ مُبَيِّنَاتٍ
فَالِاخْتِلَافُ وَقَعَ بَيْنَ السَّلَفِ فَبَعْضُهُمْ أَجَازَهَا وَبَعْضُ كَفَ

رَجَّحَ المانعون مذهبهم بالعمومات، كحديث: (مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ) وبسَدِّ الذَّرَائِعِ لَأَنَّهُ قَدْ يَسْتَغْلُ هذا أصحابُ الخُرَافَاتِ، بل قد استغلُّوه، فصاروا يضعون شيئاً من القرآن ويخلطونه بغيره من الألفاظِ الشَّرِكِيَّةِ وَيُقَطِّعُونَهُ أَحرفاً، فمن أوجِه المنعِ سَدُّ هذا البابِ، ثُمَّ قَدْ يَدْخُلُ بالقرآنِ بعضُ الأماكنِ الَّتِي يُنَزَّهُ عنها القرآنُ خاصَّةً إذا عُلِّقَ على الأطفالِ، قال إبراهيم النَّخَعِيُّ: "كانوا -يعني أصحابُ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه- يكرهون التَّمَائِمَ كُلَّهَا، من القرآنِ وغيرِ القرآنِ".

ومن حُجَّةِ الْمُجِيزِينَ حَدِيثُ (مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكِلَإِلَيْهِ) وهذا تَعَلَّقَ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ وَرَدَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَكَثِيرٌ مِمَّنْ أَجَازَهُ أَجَازُهُ بَعْدَ نَزُولِ الْبَلَاءِ لَا قَبْلَهُ.

وَأَمَّا التَّوَلُّةُ فَهِيَ شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحِبُّ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا وَالرَّجُلَ إِلَى امْرَأَتِهِ فَهِيَ مِنَ السَّحَرِ، وَهِيَ شَرٌّ لَيْسَ فِيهَا التَّفْصِيلُ الَّذِي سَبَقَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ.

الحديث الثامن

عَنْ أَبِي وَقَدٍ اللَّيْثِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى حَنِينَ، مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَرْكَبَنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.

قَوْلُهُ: (يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ) أَنْوَاطٌ: جَمْعُ نَوَاطٍ وَهُوَ التَّعْلِيقُ، فَلِكثَرَةِ مَا يُعَلَّقُ عَلَيْهَا مِنَ السَّلَاحِ قِيلَ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، وَهِيَ لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ شَجَرَةً سِدْرٍ نَبَتَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَمْثَالُهَا كَثِيرٌ، لَكِنْ أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَيْهِمْ أَنَّ فِي تَعْلِيقِ أَسْلِحَتِهِمْ عَلَيْهَا بَرَكَةً وَاسْتِفْتَاحًا بِالنَّصْرِ؛ فَلَأَجَلَ ذَلِكَ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيَنْوِطُونَ -أَيُّ يُعَلِّقُونَ- عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ.

وَقَوْلُهُ: (فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ) هَذَا طَلَبُهُ حَدَثًا الْعَهْدَ بِالْكَفْرِ، كَمَا قَالَ أَبُو وَقَدٍ اللَّيْثِيُّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى: (وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكَفْرٍ) أَيُّ أَسْلَمْنَا عَنْ قُرْبٍ وَلَمْ نَتَفَقَّهْ بَعْدُ فِي الدِّينِ؛ لِذَلِكَ طَلَبُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ مِثْلَهَا، فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: (هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿اجْعَلْ

لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ) فيه أن التبرُّك بالشجر ونحوه من الحجر والقبر والقُبَّة والبناء أن ذلك من الشرك.

والتبرُّك: طلب البركة، والبركة: كثرة الخير ودوامه، والتبرُّك يكون شركاً أكبر ويكون شركاً أصغر.

■ يكون شركاً أكبر إذا اعتقد المتبرِّك استقلال المُتبرِّك به بالتأثير، كما يفعله القبوريون حين يتمسحون بقبور الأولياء ويعتقدون أن الولي يستقل بإعطاء البركة.

■ ويكون شركاً أصغر إذا اتخذ للتبرُّك سبباً لم يثبت كونه سبباً، كمن يتبرك بسواري المسجد وأبوابه ويعتقد أن البركة من الله، وأن هذه السواري سبب للبركة.

والبركة من الله كما قال النَّبِيُّ ﷺ في حديث البخاري في نبع الماء من بين أصابعه، قال ﷺ: **(حَيَّ عَلَى الطُّهُورِ الْمُبَارَكِ، وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ).**

فالله - سبحانه وتعالى - يجعل البركة في بعض الأزمة كليلة القدر: **﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾** [الدخان: ٣].

أو الأمكنة كالمسجد الأقصى: **﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾** [الإسراء: ١]. أو في بعض الذوات كنبينا ﷺ فيتبرك بذاته وعرقه وثيابه، وقد صح هذا من فعل الصحابة - رضي الله عنهم - مع نبينا ﷺ، لكنه خاص بالنبى ﷺ لا يُقاس عليه فيه غيره من الصالحين؛ لأن الصحابة لم يتبركوا بغيره ﷺ في حياته وبعد موته، فلم يتبركوا بأبي بكر ولا بعمر رضي الله عنهما، وكذلك لم يتبرك التابعون بالصحابة رضي الله عنهم، فلا يُتبرك بأثر حسيٍّ من آثار الصالحين إلا بآثار نبينا ﷺ، ولم يبق منها شيء اليوم.

التبرُّك نوعان: مشروع، وممنوع.

فالمشروع: هو التبرُّك بما جعله الله تعالى سبباً للبركة.

والممنوع: هو اعتقاد البركة والتماسها فيما لم يجعله الله سبباً لها، وقد يكون شركاً أكبر وقد يكون أصغر على التفصيل السابق.

الحديث التاسع

عن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَهُ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحَدِّثًا، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ» رواه مُسْلِم.

الشاهد من الحديث في قوله ﷺ: (وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ)، وكلمة (لَعَنَ) تحتمل أن تكون دُعائية وأن تكون خبرية:

فعلى أنها دعائية: يكون المعنى: اللهم الْعَن من ذبح لغيرك.

وعلى أنها خبرية: يكون خبراً من النبي ﷺ بأنَّ مَنْ ذبح لغير الله فهو ملعون، وعلى كلا الاحتمالين فالحديث دليل على تحريم الذبح لغير الله وأنه من الكبائر.

ويدل على أنه من الشُّرك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

فالنُّسك هو الذبح، والذبح يجب أن يكون لله لا شريك له، فمن ذبح لغير الله فقد أشرك، وما يحصل عند القبور من الذبح تقرباً إليها هو من الشُّرك الأكبر؛ لأن الذبح عبادة، ومن ذبح لغير الله فقد جعل العبادة لغير الله، وهذا هو الشرك.

والذبح أربعة أقسام:

١ - القسم الأول: عبادة لله، وهو ثلاثة أنواع:

• النوع الأول: الأنساك المتعلقة بالحج والعُمرة، كهدي التمتع والقران،

وكفدية الأذى بسبب ارتكاب محظور، وكدم الجُبران لترك واجب.

• والنوع الثاني: الأضاحي.

• والنوع الثالث: العقيقة.

٢- القسم الثاني: ذبحٌ مُباح؛ كالذبح لإطعام أهل البيت، وإكرام الضيف.

٣- القسم الثالث: ذبحٌ مُحرم، كالذي يكون فيه سَرَفٌ.

٤- القسم الرابع: الشرك الأكبر المُخرج من الملة بأن يذبح لغير الله، كالذبح للجن تقرباً إليهم، وللمشعوذين، وللمقبورين نسأل الله العافية.

الحديثُ العاشر

عن ثابت بن الضحاك -رضي الله عنه- قال: نذر رجلٌ على عهدِ رسولِ الله ﷺ أن ينحرَ إبلاً ببوانةً، فأتى رسولَ الله ﷺ فقال: إني نذرت أن أنحرَ إبلاً ببوانةً، فقال رسولُ الله ﷺ: «هل كان فيها وثنٌ من أوثانِ الجاهلية يُعبدُ؟ قالوا: لا، قال: هل كان فيها عيدٌ من أعيادِهِم، قالوا: لا، فقال رسولُ الله ﷺ: أوفِ بنذرك، فإنه لا وفاءَ لنذرٍ في معصيةِ الله ولا فيما لا يملكُهُ ابنُ آدمَ» رواه أبو داود.

بعد أن أورد المؤلف -وفقه الله- الحديث الدالّ على عدم مشروعية الذبح لغير الله، أورد هذا الحديث الدالّ على عدم مشروعية الذبح لله في مكانٍ يُذبح فيه لغير الله. فإذا كان المُشركون يذبحون لأصنامهم في مكان، سواءً أكانوا يذبحون فيه لأصنام في الماضي ثم زال ذلك أم مازالوا يذبحون فيه لأصنامهم؛ فإن الشريعة تمنعُ الذبح فيه لله، وذلك لأنه وسيلةٌ إلى الشرك، فنهينا عنه سدّاً للذريعة، ولما فيه من مُشابهة المُشركين في صورة الفعل وتقويتهم على فعلهم بتكثير سوادهم، وقد يكون هذا سبباً لإساءة الظن بالمُسلم الذي يذبح لله في مكانٍ يذبحُ أهله لغير الله، والمُسلم مُكلّفٌ شرعاً بأن يُبعد الشر عن نفسه، ثم إنك ربما دعوت أحداً رأيته يذبحُ عند قبر؛ فأخبرته أن الذبح لغير الله شرك

فيقول: أنا أذبحُ لله، فتبينُ له أنه ولو كان الذبحُ لله فإن الشريعة نهتنا عن الذبح لله في مكانٍ يُذبحُ فيه لغير الله.

وهذا الرجل في الحديث خصص هذا الموضع بالنذر، فأراد النبي ﷺ أن يعرف لماذا خصص هذا الموضع فسأله: **(هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يُعبدُ؟)**، **(هل كان فيها عيدٌ من أعيادهم)**.

وقد جاء في حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- في هذه القصة أن النبي ﷺ قال له: **(في نفسك شيءٌ من أمر الجاهلية قال: لا، قال: أوفِ بنذركَ)** فدل ذلك على أن المكان الذي يُذبح فيه لغير الله لا يجوز للموحد أن يذبح فيه لله؛ سدًا لذريعة الشرك، وبُعدًا عن مُشابهة المُشركين في عبادتهم.

ويدل لذلك قوله تعالى: **﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾** [التوبة: ١٠٨] فقد نهى الله تعالى نبيه ﷺ عن الصلاة في مسجد الضرار لكونه مؤسسًا على معصية الله، كما قال الله تعالى في الآية التي قبلها: **﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾** [التوبة: ١٠٧] فكذلك المواضع المُعدَّة للذبح لغير الله لا يذبح فيها المُوَحِّدُ لله؛ لأنها مؤسسة على معصية الله وعلى الشرك به.

ومن مسائل الحديث:

حكم النذر؛ والنذر يختلف حكمه باختلاف أقسامه.

▪ فالنذر يكون نذر طاعة، كأن يقول: "الله عليّ نذرٌ أن أصلي ركعتين" فهذا يجب الوفاء به؛ لأن النبي ﷺ قال: **(مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعهُ)**.

▪ ويكون نذر معصية، كأن ينذر أن يؤدي مُسلمًا أو أن يشرب خمرًا، فهذا يحرم الوفاء

به؛ لقوله ﷺ: **(وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِه)**.

▪ ويكون نذر شرك -والعياذ بالله-، فالنذر عبادة بدليل قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧]، مدح الله تعالى الموفين بالنذر، فدل على أنه عبادة، فجعله لغير الله من الشرك الأكبر.

ومن قواعد توحيد العبادة: أنه إذا ثبت كون الشيء عبادة لله فجعله لغير الله شرك أكبر، مثاله أن يقول: عليه نذرٌ للولي الفلاني أن يفعل كذا وكذا، فهذا النذر شرك. وقوله ﷺ: (هل كان فيها عيدٌ من أعيادهم) فيه حرمة الاحتفال بأعياد المشركين، والمشروع لهذه الأمة عيد الفطر وعيد الأضحى، والمقصود بالعيد: ما اعتيد قصده من زمانٍ أو مكان على وجه التعظيم، وقد قدم النبي ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: (قد أبدلكم الله بهما خيراً منهما: يوم الأضحى ويوم الفطر).

الحديث الحادي عشر

عن النعمان بن بشير -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: (الدعاء هو العبادة) وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ [غافر: ٦٠] رواه أبو داود.

الحديث دليل على أن الدعاء عبادة، فمن دعا غير الله فقد أشرك.

وأكثر شرك المتقدمين والمتأخرين هو في دعاء غير الله، وقد سماه الله شركاً، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤-١٣]، وهو أصل شرك العالم.

قال ابن القيم -رحمه الله- في مدارج السالكين: "من أنواعه -يعني الشرك- طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم".

والأدلة متضافرة على الأمر بدعاء الله وحده، وعلى النهي عن دعاء غيره، قال تعالى:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ إِذَا

مِنَ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [من سورة يونس الأيتان: ١٠٧-١٠٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ

الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف: ٥].

وليس من ذلك أن يطلب من المخلوق شيئاً يقدر عليه، فمن المعلوم بالضرورة أن هذا مما لا حرج فيه، كأن يستغيث بحی حاضر فيما يقدر عليه.

وفي الصحيحين في ذكر الفتن، قال ﷺ: (سَتَكُونُ فِتْنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ) إلى أن قال: (وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ) أي ليتحصن وليتحرز به، فهذا يدل على أن الاستعاذة وهي من الدعاء متى كانت بحی حاضر قادر، ولم يكن فيها توجه القلب والاضطرار والافتقار فهي أمرٌ جائز.

ومنه ما وقع للرجل من بني إسرائيل مع موسى -عليه السلام-: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ

شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

منه أن يقول للطبيب: أغثنني بالدواء، أو يقول لقوي: أعزني من شر هذا العدو.

ومنه ما كان الصحابة يطلبونه من النبي ﷺ في حياته، كما طلبوا منه أن يدعو الله لهم بأن يُغيثهم المطر.

ومنه طلب الشفاعة منه ﷺ يوم القيامة؛ فهي استغاثة بمخلوق حي فيما يقدر عليه.

الحديث الثاني عشر

عن عُمر -رضي الله عنه- قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**».

الإطراء: مُجاوزةُ الحدِّ في المدح والكذب فيه، والنصارى غَلَوْا في عيسى -عليه السلام- وأطروه حتى ادَّعَوْا له الألوهية؛ فنهى النَّبِيُّ ﷺ عن إطرائه كما أطرت النصارى ابن مريم، ثم قال: (**إِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ**) أي ليس لي من حق الربوبية شيء، و(**إِنَّمَا**) أداة حصر، فقطع ﷺ الطريق على كل نزعة غُلُوٍّ.

ثم أمر بالتوسط في حقه ﷺ فقال: (**فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**) فهو ﷺ موصوفٌ بهذين الوصفين.

وفي وصفه بأنه عبدٌ لله؛ ردُّ على أهل الغلو الذين يجعلون له شيئاً من صفات الربوبية أو الألوهية.

وفي وصفه بأنه رسولٌ ردُّ على أهل الجفاء الذين لا يُعزِّرونه ولا يُوقِّرونه، فالحق وسطٌ بين طرفين؛ وهُدًى بين ضالَّتين، وحقٌّ بين باطلين، فهو ﷺ عبدٌ لا يُعبد ورسولٌ لا يُكذَّب، بل يُطاع ويُتَّبَع.

عَلَيْكَ بِأَوْسَاطِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا طَرِيقٌ إِلَى نَهْجِ الصَّوَابِ قَوِيمٌ
وَلَا تَغُلْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَمْرِ وَاقْتَصِدْ كِلَا طَرَفَيْ قَضِ الْأُمُورِ ذَمِيمٌ

والغلو في الصالحين هو الذي أهلك الأمم المتقدمة، قال ﷺ: (**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ**) فحذَّر منه وزَجَرَ عنه، ثم بيَّن عاقبته فقال: (**فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوَّ**).

وقد قال ﷺ: (**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**) والتَّنَطُّعُ: التَّعَمُّقُ في الشيء والمُبَالِغَةُ فيه والتكلف. ومن التَّنَطُّعِ: الغلو في الصالحين، وإطراؤهم، والمُبَالِغَةُ في مدحهم.

ومن كان من أهل الصلاح والفضل والعلم فحَقُّه الإجلال والانتفاع بعلمه، والتأسي بأخلاقه وعمله، ولا يُغلى فيه.

وسببُ هلاكِ قومِ نوح ووقوعِهِم في الشُّرك هو غلوهم في صالحِيهِم وُدٌّ وسُواعٍ وَيَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرٍ حتى آل الأمر إلى أن عبدوهم من دون الله، وهم لم يعبدوهم من أول الأمر بل غلوا في حبهم وتعظيمهم بأن عكفوا على قبورهم وصوروا تماثيلهم، ثم عُبِدَت هذه الأنصابُ من دون الله.

وهذا يُبَيِّنُ أن الشُّركَ ينتشرُ إذا قلَّ العلم، وقل من يدعو إلى التوحيد، فنشر التوحيد وغرسه في الناس حجابٌ دون وقوع الشُّرك في الأمة.

الحديث الثالث عشر

عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ أَوْلَئِكَ، إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» متفق عليه.

عرفنا في الحديث السابق خطرَ الغلوِّ في الصالحين على عقيدة المسلم، وهذا الحديث فيه التحذير من صورةٍ عَظُمَت بها الفتنة من صور الغلو في الصالحين، وهي عبادة الله عند قبور الصالحين.

انظر كيف وصف النبي ﷺ هؤلاء الذين يعبدون الله عند قبور صالحِيهِم بأنهم شرار الخلق عند الله، وسببُ وصفهم بهذا الوصف: بناءُ المساجدِ على قبور الأنبياء والصالحين وتصويرُ تلك الصور، فإذا كانوا شرار الخلق بهذين الوصفين: بناءِ المساجدِ

على القبور، وتصوير الصور؛ فكيف إذا توجهوا بالعبادة إلى هؤلاء المقبورين! لا شك أن الأمر أغلظ وأعظم.

قال ابن القيم -رحمه الله- في إغاثة اللفهان: "فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل".

وَجُلُّ الشُّرْكِ فِي الْعَالَمِ: هُوَ شِرْكٌ بِقَبْرِ يُعْبَدُ أَوْ تِمَثَالٍ يُعْبَدُ، وَأَوَّلُ شِرْكٍ وَقَعَ فِي الْأَرْضِ هُوَ شِرْكُ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى هَاتَيْنِ الْفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةُ الْقُبُورِ وَفِتْنَةُ التَّمَاثِيلِ. وَنَبِينَا ﷺ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ فِي تِلْكَ اللَّحْظَاتِ الَّتِي كَانَ يُعَالِجُ فِيهَا أَمْرًا عَظِيمًا مَا كَفَّ عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الشُّرْكِ.

قالت عائشة -رضي الله عنها-: (لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أي حضرته الوفاة (طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ كَشَفَهَا، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: (لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى) اللعن: الطرد والإبعاد من رحمة الله، وقد بين علة لعنهم فقال: (اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ).

فمن اتخذ قبور الأنبياء مساجد كان له نصيب مما قال رسول الله ﷺ، فكيف إذا عبد هؤلاء المقبورين! لا شك أنه أشد وأغلظ.

واتخاذ القبور مساجد يشمل:

- الصلاة عليها بأن يُصلي على القبر.
- والصلاة إليها بأن يجعلها أمامه قبله له.
- والصلاة عندها.
- وأن يُبنى مسجد على قبر.
- وأن يُدفن القبر داخل المسجد.

هذه الصور كلها يشملها وصف اتخاذ القبور مساجد.

الحديث الرابع عشر

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ» رواه البخاري.

في الحديث أن شفاععة النبي ﷺ يوم القيامة إنما تكون لأهل التوحيد والإخلاص ولا تكون لمن أشرك بالله، فاعجب بعد ذلك ما شئت أن تعجب ممن يجعل عبادته لغير الله من الأنبياء والأولياء ومن دونهم يدعوهم من دون الله من أجل أن ينال منهم الشفاععة. انظر كيف يطلب الشفاععة من الوجه الذي يحرمه منها؟! فالشفاعة إنما تكون لأهل التوحيد ولا تكون لمن أشرك بالله، قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، وقال ﷺ في هذا الحديث الذي أورده المصنف: (أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ) أو قال: (نَفْسِهِ).

وقال ﷺ: (وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لَأُمْتِي، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ مَاتَ مِنْهُمْ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا).

والمقصود بالشفاعة: التوسطُ بجلب خيرٍ أو دفع شرٍّ، بأن يسأل الشافعُ الله حصولَ نفعٍ للمشفوع له من جلب خيرٍ أو دفع شرٍّ، وهي شفاعتان: شفاعَةٌ مُثَبَّتَةٌ، وشفاعةٌ مَنْفِيَةٌ. فالمُثَبَّتَةُ هي الواردة في مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. والمَنْفِيَةُ هي الواردة في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣].

والمُثَبَّتَةُ هي التي اجتمعت شروطها، وهي ثلاثة شروط:

- الشرط الأول: إذن الله بالشفاعة، قال تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.
- والثاني: رضا الله عن الشافع، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ

وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

■ والثالث: رضا الله عن المشفوع، قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وقد اجتمعت هذه الشروط الثلاثة في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ هذا الإذن بالشفاعة ﴿وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦] أي عن الشافع وعن المشفوع.

وهناك ثلاث شفاعات أجمع العلماء على أنها خاصة بالنبي ﷺ:

- الأولى: شفاعته ﷺ في أهل الموقف حتى يُقضى بينهم وهي المقام المحمود، وهي الشفاعة العظمى التي تكون لجميع الخلائق بأن يبدأ الله في حسابهم.

- والثانية: شفاعته ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوها.

- والثالثة: شفاعته ﷺ في عمه أبي طالب أن يُخفف عنه العذاب.

وتم شفاعات أخرى له ﷺ ولغيره، منها:

- الشفاعة في أقوام دخلوا النار أن يخرجوا منها، يدل لها حديث: (انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردلٍ من الإيمان فأخرجوه).

- ومنها الشفاعة في أقوام استحقوا دخول النار أن لا يدخلوها، وهذه الشفاعة أثبتها شيخ الإسلام ابن تيمية في الواسطية، وابن كثير، وابن أبي العز، وابن حجر في آخرين.

لكن لما ذكر ابن القيم في تهذيب السُنن هذا النوع من الشفاعة قال: "لم أظفر فيه بنص". وهذا النوع فيه أحاديث صريحة لكنها لم تصح، ومن أثبتها استدل بعموم ما صح عن النبي ﷺ من قوله: (شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي).

واستدل لهذا النوع بحديث مرور الناس على الصراط، وفيه قوله ﷺ: (وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصَّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ) والدعاء بالسلامة نوع من الشفاعة، وعند ابن حبان: (فَعِنْدَ ذَلِكَ حَلَّتِ الشَّفَاعَةُ اللَّهُمَّ سَلِّمْ، اللَّهُمَّ سَلِّمْ) فمن أثبت هذا النوع من الشفاعة استدل بهذه الأدلة وهو مذهب الجمهور.

الحديث الخامس عشر

عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «**لَا عَدَوَى وَلَا طِيرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأَلُ قَالُوا: وَمَا الْفَأَلُ؟ قَالَ: كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ**» متفقٌ عليه.

قوله ﷺ: **(لَا عَدَوَى)** العدو: هي انتقال المرض من المريض إلى الصحيح، والعدوى التي نفاها النبي ﷺ: هي العدو التي كان يعتقدها أهل الجاهلية، وهي أنها تؤثر بطبعها دون تقدير الله، فهذه هي المنفية.

أما أن العدو سببٌ من أسباب الإصابة بالمرض؛ فهذا لا يُنكر ولهذا قال ﷺ: **(لَا يُورَدَنَّ مُمْرَضٌ عَلَى مُصِحٍّ)**. المُمْرَضُ: صاحب الإبل المِراض، والمُصِحُّ: صاحبُ الإبل الصَّحاح، والمعنى: لا يُورَدُ صاحبُ الإبلِ المِراضِ إبلَه على إبلِ صاحبِ الإبلِ الصَّحاح. وقال ﷺ: **(فَرٌّ مِنَ الْمَجْذُومِ فَرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ)**.

فالمقصود بنفي العدو نفْيُ ما كان يعتقدُه أهل الجاهلية من أن العدو مؤثرةٌ بذاتها دون تقدير الله تعالى، وحديث: **(لَا يُورَدَنَّ مُمْرَضٌ عَلَى مُصِحٍّ)**، وحديث: **(فَرٌّ مِنَ الْمَجْذُومِ فَرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ)** دليلٌ على إثبات كونها سبباً للمرض، وأنه ينبغي التوقي منها. قوله ﷺ: **(وَلَا طِيرَةَ)** هذا نفْيُ لتأثير الطيرة، وأصل ذلك: أن أهل الجاهلية كانوا يتشاءمون بالطيور، فإذا أراد أحدٌ سفرًا أو عملاً زجر الطير؛ فإن ذهبَت يميناً تفاءل، وإن ذهبَت شمالاً تشاءم، ثم إنه توسع مدلول التطير حتى صار في الاصطلاح أعم من ذلك؛ فصار يشمل التشاؤم بكل مرئيٍّ أو مسموعٍ أو معلوم.

فالتطير بالمرئي كمن خرج يُريد سفرًا فقابلَ أعورَ أو أعرجَ فوقع في قلبه أن هذه السفرة مشؤومة فترك السفر.

والتطير بالمسموع كمن خرج يُريد سفرًا فسمع نعيق بوم أو صياح غراب، أو قائلًا يقول لآخر: يا خائب، أو يقول: يا خاسر؛ فعدل عن السفر.

والتطير بالمعلوم كمن يريد سفرًا فبلغه خبرٌ سيِّء فتشأَم به ورجع عن قصده.
ومما يوضح ذلك: ما حصل لجحدر لما قُبِضَ عليه وأُتي به إلى الحجاج، وهو في الطريق
رأى حمامتين تتجاوبان على غصنين من غَرْبٍ وبان، الغَرْبُ: ضَرْبٌ من الشجر، والبانُ:
ضَرْبٌ آخر من الشجر، فقال:

وَمِمَّا هَاجَنِي فَازْدَدْتُ شَوْقًا بُكَاءُ حَمَامَتَيْنِ تَجَاوَبَانِ
تَجَاوَبَتَا بِلَحْنٍ أَعْجَمِيٍّ عَلَى غُصْنَيْنِ مِنْ غَرْبٍ وَبَانِ
فَكَانَ الْبَانُ أَنْ بَانَتْ سُلَيْمَى وَفِي الْغَرْبِ إِغْتِرَابٌ غَيْرُ دَانِ

فتشأَم بهذين الاسمين، وهو كثيرٌ في أشعارهم.
والطيرة من الشرك الأصغر؛ لأنها تتضمن اتخاذ سببٍ لم يثبت كونه سببًا، وقد نفاها النبي
ﷺ فقال: **(وَلَا طِيرَةَ)**، فدل على بطلانها وعدم تأثيرها، فهي تَوَهُّمٌ ليس له في الحقيقة
تأثير، فلا يجوز أن يُعلق الإنسان أفعاله بأمورٍ موهومة، فالشريعة جاءت لتُرَبِّي المؤمنين
على أن يُقيموا تصرفاتهم وأعمالهم على البيّنة، وألا تتلاعب بهم الظنون والأوهام
فتتعطل مصالحهم.

قال: **(وَيُعْجِبُنِي الْفَأَلُ قَالُوا: وَمَا الْفَأَلُ؟ قَالَ: كَلِمَةُ طَيِّبَةٍ)** الفأل: يَسُرُّ وَيُفْرِحُ، وقد فسره
النَّبِيُّ ﷺ بالكلمة الطيبة، كأن يسمع مَنْ شَرَعَ في سفرٍ من يُنادي: يا راشد، فيستبشر ويزيده
ذلك نشاطًا وإقدامًا في سفره.

أو يسمعُ المريضُ من يُنادي: "يا سالم"، فيبتهجُ ويتفاءل.
أو يكون له ضائع فيسمع يا واجد فيتفاءل بذلك.

الحديث السادس عشر

عن عمران بن حصين - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تَطَيَّرَ لَهُ أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تَكُهَّنَ لَهُ أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ وَمَنْ عَقَدَ عُقْدَةً أَوْ قَالَ: عُقْدَ عُقْدَةً وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» رواه البزار.

قوله ﷺ: (لَيْسَ مِنَّا) هذا التعبير النبوي نفي للإيمان الواجب، والمراد: أنه لا يفعل هذا من كان على سُنَّتِنَا وطريقَتِنَا، فهو من الألفاظ الدالة على التبرؤ من فاعله وأن فعله من الكبائر.

قوله ﷺ: (مَنْ تَطَيَّرَ) أي تشاءم، وسبق بيان معنى الطيرة.

قوله ﷺ: (أَوْ تَطَيَّرَ لَهُ) أي طَلَبَ مَنْ يَتَطَيَّرُ لَهُ؛ كأن يقول لأحد: أريد السفر إلى المكان الفلاني، فازجر الطير ليتبين لي النفع أو الضرر.

قوله ﷺ: (أَوْ تَكُهَّنَ) أي استشرف الغيب بنفسه.

قوله ﷺ: (أَوْ تَكُهَّنَ لَهُ) أي طلب من يستشرف له الغيب.

وادعاء علم الغيب قد يكون ممن يُخْبِرُ عن المُغَيِّبَاتِ بالأخذ عن مُسْتَرَقِ السَّمْعِ وهذا الكاهن.

وقد يكون ممن يستدل بالأمور الظاهرة على الأمور الغائبة من مسروقٍ ومكان ضالةٍ ونحو ذلك وهذا العراف.

وقد يكون ممن ينظر في النجوم لاعتبار تأثيرها في الحوادث الكونية، وهذا المُنَجِّم.

وقد يكون بالخط في الرمل، ومثله الضرب بالحصى وهذا الرَّمَّال.

ويجمع ذلك كله ادعاء علم الغيب، وصَوْرُهُ أكثر من ذلك، فمنه ما يكون بقراءة الكَفِّ وقراءة الفِنجان، ومنه ما يُسَمَّى بالأبراج يقول: إذا وُلِدَتْ في بُرْجِ كذا فهذا الشهر شهر

رزق لك، وسيحصل لك في هذا العام كذا، فكل من ادعى علماً من الغيب واستعمل في ذلك وسيلة ظاهرة ليوهم بها الناس فهو داخل في الوعيد.

قوله ﷺ: **(أَوْ سَحَرَ)** أي باشر السحر بنفسه.

قوله ﷺ: **(أَوْ سُحِرَ لَهُ)** أي أَمَرَ من يَسَحَر له، وهذا يقع من الحاقدين إذا أراد أحدهم مضارّة آخر يَبْذُل مَالاً للساحر ويطلب منه أن يفعل به شراً.

قوله ﷺ: **(وَمَنْ عَقَدَ عُقْدَةً)** المراد به السحر؛ لأن السحر عَقْدٌ وَرُقَى يُنْفَثُ فيها مع الاستعانة بالشياطين فتَوَثَّرُ في المسحور، وقد قال ﷺ: **(مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ**

سَحَرَ) والسحر والكهانة كلاهما فيه استعانة بالشياطين كما قال النَّبِيُّ ﷺ في حديث مُسْتَرَقِ السَّمْعِ: **(حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ)** فالساحر والكاهن كلاهما يستعين بالشياطين، ويفترقان في أن الكهانة إخبارٌ عن المُغَيَّبَاتِ، وأما السحر ففيه تأثيرٌ بعطف أو إيصال أذى ونحو ذلك، فالكهانة ترجع إلى الإخبار والسحر يرجع إلى التأثير. ثم قال ﷺ: **(وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)** فيه من الوعيد كُفْرٌ من صَدَّقَ كَاهِنًا، وعليه فالكاهن المدّعي معرفة الغيب أولى بهذا الحكم.

وهذا الحكم وهو كُفْرٌ من أتى كاهناً فصَدَّقَهُ اختلف فيه العلماء هل هو كفرٌ أكبر أو أصغر؟ ويدل لكونه أصغر أمران:

- الأول: لفظ مُسْنَدُ الإمام أحمد: **(مَنْ أَتَى عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا)** فلو كان كُفْرًا أكبر لم تُقْبَلْ صلاته أبداً.

- والآخر: وجود الشبهة: وهي أنه لا يقول: إن هذا الكاهن يعلم الغيب الذي استأثر الله بعلمه، بل يقول: إنه يُصَدِّقُهُ في ذلك الغيب الذي أَخْبَرْتُهُ به الجن مما سمعته من الملائكة، فخرج عن كونه من الغيب الذي استأثر الله بعلمه، فهذه الشبهة تدّرأ عنه الكُفْرُ الأكبر.

ولا شك أنه على خطرٍ عظيم؛ فإن قول النبي ﷺ عَمَّنْ صَدَّقَ كَاهِنًا (فقد كفر بما أنزل على مُحَمَّدٍ ﷺ) لا شك أنه وعيدٌ عظيم.

وقد قرّر أهل العلم أن إتيان الكُهان والعرافين على حالات:

■ الحال الأولى: أن يسألهم فقط، فهذا لا تُقبل له صلاةٌ أربعين ليلةً، كما في صحيح مُسلم ولو لم يُصدّقه، وفي صحيح مُسلم أيضًا أن معاوية بن الحكم السلمي قال للنبي ﷺ: (وإنَّ مِنَّا رَجُلًا يَأْتُونَ الْكُهَّانَ، قَالَ: فَلَا تَأْتِيهِمْ).

■ الثانية: أن يسألهم ويُصدقهم، فهذا قال عنه ﷺ: (فقد كفر بما أنزل على مُحَمَّدٍ)، وسبق بحثُ نوعِ الكُفر هل هو أكبر أو أصغر.

■ والثالثة: أن يأتيه العالمُ للإنكار عليه وكشف باطله، فهذا مشروع لكنه للعالم لا لغيره، ويشهد له ما في الصحيحين من أن النبي ﷺ انطلق في رهطٍ قبلَ ابنِ صيَّاد، وفيه أن النَّبيَّ ﷺ قال له: (إني قد خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا، قَالَ ابْنُ صَيَّادٍ: هُوَ الدُّخُّ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدَوْ قَدْرَكَ).

وفي حكم إتيانهم مُطالعة قنوات السحر والشعوذة التي يلبسها أصحابها ثوبَ الدِّين، وَيَعْرِوْنَ السُّدُجَ بِفِكَ السَّحَرِ وَجَلْبِ الْحَبِيبِ؛ فهذه القنوات لا تجوز مُشاهدتها، ولو قال: أنا أشاهد هذه القنوات للتفرّج فقط ولا أصدقهم فهذا لا يحل، وهو في حكم إتيان الكاهن والعراف لا تُقبل له صلاةٌ أربعين يومًا، فإن صدقهم انتقل إلى الحالة الثانية التي قال ﷺ فيها: (فقد كفر بما أنزل على مُحَمَّدٍ ﷺ).

وكذلك ما يوجد في بعض المجلات والصفحات والمواقع مما يُسمّى بالأبراج وأن من وُلِدَ في بُرج كذا حصل له كذا رجماً بالغيب؛ فلا تجوز مُطالعتها فضلاً عن اعتقاد صحتها، فدينُ الإسلام قائمٌ على البَيِّنَةِ، لا على الظنون والأوهام، ولا مجال فيه لمُغرضٍ أن يُفسد عقول الناس وقلوبهم وأن يسلب أموالهم.

الحديث السابع عشر

عن زيد بن خالد الجهني - رضي الله عنه - أنه قال: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بَنَوْهُ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ» متفق عليه.

قوله ﷺ: (على إثر سماءٍ) إثر الشيء: ما يعقبه، والمراد بالسماء هنا المطر، سُمِّيَ المطرُ سماءً باعتبار جهته؛ لأنه ينزل من السماء، والمعنى: أنه ﷺ صلى بهم الصبح بعد مطرٍ نزل ليلاً.

وقوله ﷺ: (قال: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ) هذا الكفر ليس كفرًا مُخرَجًا عن الملة؛ لأن العبودية المذكورة هنا عبودية الإيمان، (أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي) أي المؤمنين (مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ) هذه الجملة قالها المؤمنون، قالوا: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فاكسبت صفة الذكر المشروع؛ لأن الله - عز وجل - أقرها، والنبي ﷺ أقرها؛ فيُشرع لنا إذا نزل المطر أن نقول: (مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ).

(وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بَنَوْهُ كَذَا وَكَذَا) أي مُطِرْنَا بَنَوْهُ كَذَا وَكَذَا (فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ). و(النَّوْءُ) جمعه أنواء، والأنواء: منازل القمر.

وجه كفره: أنه وقع منه لفظٌ ينافي التوحيد الواجب، حيث نسب المطر إلى النجم نسبة سبب فيكون شركًا أصغر؛ لأن فيه إثبات سببٍ لم يثبت كونه سببًا، ثم هو من نسبة نعمة الله إلى غيره، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] أي

تجعلون بدل أن تشكروا الله على ما رزقكم من المطر ﴿أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ فتنسبون المطر إلى النوء فتقولون: مُطَرْنَا بنوء كذا.

ولو صَدَرَ هذا القول من مُعْتَقِد أن النوء هو المؤثر لكان شركاً أكبر مُخْرَجاً من الملة، لكن الواقع في الحديث هو من النوع الأول؛ فعَلَّمَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ ما ينبغي لهم أن يقولوه. أما إذا كانت (الباء) للظرفية، أي مُطَرْنَا في وقت نوء كذا؛ فالمعنى صحيح، والأولى تجنب هذا التعبير سداً للذريعة، وبُعْداً عن مشابهة أهل الشرك. والحاصل أنه إذا كانت النسبة نسبة سبب فهو شركٌ أصغر، وإذا كانت نسبة تأثير دون تقدير الله فهو شركٌ أكبر، وإذا أُريدت الظرفية فالمعنى صحيح، والأولى تَجَنُّبُ هذا التعبير.

ومما له صلة بهذا: أن التنجيم نوعان:

- تنجيمٌ تأثير.

- وتنجيمٌ تسيير.

فتنجيم التأثير: هو النظر في النجوم لاعتبار تأثيرها في الحوادث الكونية.

وأما تنجيم التسيير: فهو النظر في النجوم للاستدلال بحركات سيرها على الجهات والأحوال فيُستدل بها على جهة القبلة أو الأوقات أو هبوب الرياح أو دخول الفصول أو معرفة الطرق ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] فهذا جائز.

أما تنجيم التأثير فإنه على ثلاثة أنواع:

- النوع الأول: اعتقاد أن للنجوم استقلالاً بالتأثير وتدبيراً لهذا الكون، وهذا كفرٌ أكبر، وهو دين الصابئة الذين بُعث إليهم إبراهيم عليه السلام.

- والنوع الثاني: اعتقاد كونها مُرْشِدَةٌ إلى الغيب؛ فيستدلُّ بظهورها وخفائها واقترانها وافتراقها على أمور الغيب، وهذا كفرٌ أكبر أيضاً.

- النوع الثالث: اعتقاد كونها سبباً غير مُستقل بالتأثير، بل هو تابعٌ قدر الله؛ فهذا أصحُّ القولين فيه جوازُه وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، فالشمس سببٌ في كثيرٍ مما يقع على الأرض من إنتاج الثمر ونمو الكائنات، والقمر سببٌ في حصول المد والجزر.

الحديث الثامن عشر

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه» رواه مسلم.

قال الله تعالى: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك) لكمال غناه - سبحانه وتعالى - (من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري) أي لم يكن خالصاً لله سبحانه وتعالى (تركته وشركه) أي لم يتقبله الله منه؛ لأنه سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً صواباً.

والرياء: هو أخوف ما يُخافُ على الصالحين، قال ﷺ: (ألا أخبركم بما هو أخوفُ عليكم عندي من المسيح الدجال، قالوا: بلى يا رسول الله قال: الشرك الخفي يقوم الرجل فيُصلي فيُزيّنُ صلاته لما يرى من نظر رجلٍ) جعل الرياء شركاً خفياً؛ لأنه عملٌ قلب لا يعلمه إلا الله، فخاف النبي ﷺ من الرياء على أصحابه، أشدَّ من خوفه عليهم من فتنة المسيح الدجال.

وفتنة المسح الدجال أعظمُ فتنةٍ منذ أن خلق الله آدم إلى قيام الساعة، وقد خاف الرياء على أصحابه الذين هم سادات الأولياء، وخيرُ الأمة على الإطلاق، فماذا يقول من بعدهم! لذا على المسلم أن يُكثر من سؤال الله الإخلاص، وقد أرشد النبي ﷺ أصحابه إلى الدعاء، قال أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه -: (خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذات يوم فقال: أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا هَذَا الشَّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، فَقَالَ لَهُ

مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ: وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ).

فأرشد إلى الدعاء لأن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يُقَلَّبُها كيف يشاء، وقد كان من دعاء عُمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: "اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا، وَاجْعَلْهُ لِرُوحِكَ خَالِصًا، وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا".

وعلى المسلم أيضًا أن يُكثر من عبادات السر التي تُربِّي في النفس الإخلاص، وقد كان السلف يستحبون أن تكون للرجل خبيئة من عملٍ صالح لا يعلمُ بها أحد، وخيرُ العمل أخفاه، وأبعده من الشيطان، وأمنعه من الرياء.

الحديث التاسع عشر

قال ابن عُمر -رضي الله عنهما-: "لا يُحْلَفُ بغير الله، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ» رواه الترمذي.

قوله ﷺ: (مَنْ حَلَفَ) الحَلْفُ: هو اليمين وهو تأكيد الأمر بذكر اسم الله أو صفته، بأن يقول: والله أو والعظيم.

قوله ﷺ: (مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ) كما لو حلف بالسماء أو بالأرض أو بأبيه أو حلف بالأمانة أو حلف بالشرف.

قوله ﷺ: (فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ) هذا شكٌّ من الراوي، وأكثر من أخرج الحديث أخرجه بلفظ (أَشْرَكَ) وهو الأنسب للمعنى؛ لأن الحلف بغير الله شركٌ مع الله في التعظيم.

في الحديث تحريمُ الحلف بغير الله، وقد نقل ابن عبد البر وابن تيمية الإجماع على التحريم وهو من الشرك الأصغر، لكن إذا عظم الحالفُ المحلوفَ به التعظيم الذي لا ينبغي إلا لله كان من الشرك الأكبر.

وأما ما جاء في صحيح مُسلم: (أن النبي ﷺ قال للرجل الذي قال: "لا أزيد على هذا ولا أنقص منه، قال رسول الله ﷺ: أفلح وأبيه إن صدق) فحلف بأبيه.

فقد أجاب عنه العلماء بأجوبة كثيرة، أقواها جوابان:

■ الأول: وهو أقواهما أن زيادة (وأبيه) شاذةٌ غير محفوظة، هذا الحديث أخرجه مالكٌ في الموطأ، والبُخاري في صحيحه، ومُسلمٌ في صحيحه دون هذه الزيادة، وفي روايةٍ لمُسلم بهذه الزيادة، وهي شاذة؛ لذا أعرض عنها البُخاري، وقد جزم بشذوذها ابن عبد البر في التمهيد، والألباني في دراسةٍ مُستفيضةٍ للحديث.

■ وقيل: إنها منسوخة؛ لأن الحلف بالآباء كان شائعاً في قُريش كما في الصحيحين من حديث ابن عُمر -رضي الله عنهما- أنه قال: كانت قُريشٌ تحلف بآبائها، فقال ﷺ: (لا تحلفوا بآبائكم).

وأجيب بأجوبةٍ أخرى إلا أن هذين الجوابين أقوى الأجوبة وأقواهما الأول.

الحديث العشرون

عن حذيفة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان» رواه أبو داود.

المحظورُ في صيغة (ما شاء الله وشاء فلان) العطفُ بالواو التي تقتضي التسوية، فمن قال: (ما شاء الله وشاء فلان) جعلَ مشيئةَ صاحبه كمشيئة الله وهذا من الشرك الأصغر.

ويدلُّ لذلك حديث قُتَيْبَةَ: (أنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَتَّ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبَّ الْكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَتَّ).

فأقره النَّبِيُّ ﷺ على وصف هذا القول بأنه من الشرك، وهو من الأصغر، وأمر بأن يقولوا: **(ما شاء الله ثم شئت).**

فالعطف بالواو مُحَرَّم، والعطف بثُمَّ جائز؛ لأنها تُفيد الترتيب والتراخي، فارتفع محذور التسوية.

والكمال في قول: **(ما شاء الله وحده)**؛ لحديث ابن عباسٍ -رضي الله عنهما- أن رجلاً قال للنبي ﷺ: **(ما شاء الله وشئت، فقال: أ جعلتني لله نِدًّا؟ ما شاء الله وحده)** فأنكر النَّبِيُّ ﷺ العطف بالواو، وأرشده إلى قول: **(ما شاء الله وحده).**

فالمُحَرَّم أن يقول: ما شاء الله وشاء فلان، ودرجة الجواز: العطف بـ(ثم)، ودرجة الكمال إفراد الله بالمشيئة إمعاناً في كمال توحيده سبحانه وتعالى.

الحديث الحادي والعشرون

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: **«قال الله عز وجل: يُؤذيني ابنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وأنا الدَّهْرُ، أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»** متفقٌ عليه.

قال الله تعالى: **(يُؤذيني ابنُ آدَمَ)** الأذية: التَّنْقِصُ، أما الضرر فإنه لا يلحقه سبحانه، كما قال تعالى: **﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾** [محمد: ٣٢]، وقال في الحديث القدسي: **(يا عبادي إنكم لن تبغوا ضري فتضروني)**، فالعباد قد يؤذون الله، لكنهم لا يضرّونه، قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾** [الأحزاب: ٥٧]، وانظر إلى قوله تعالى: **﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾** [آل عمران: ١١١]، فالضرر أعظم أثراً من الأذى، والأذى يُستعمل فيما يخف، ولا يلزم من حصول الأذى حصول الضرر.

(يُؤذيني ابنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ) جعل سبَّ الدهر أذيةً له سبحانه وتعالى.

(وَأَنَا الدَّهْرُ) أي أنا مالك الدهر ومُصَرِّفه، يُفَسِّرُهُ قَوْلُهُ بَعْدَهُ: (أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) فَثُمَّ مُقَلَّبٌ وَمُقَلَّبٌ، فَاَلْمُقَلَّبُ: هو الله سبحانه وتعالى، وَالْمُقَلَّبُ: هو الدهر الذي هو الليل والنهار.

وسب الدهر ثلاثة أقسام:

■ الأول: أَنْ يَسْبَبَ الدَّهْرُ عَلَى اعتقاد كونه فاعلاً مع الله تعالى؛ فهذا شِرْكٌ أكبر؛ لأنه أثبت خالقاً مع الله عز وجل.

■ الثاني: أَنْ يَسْبَبَ الدهر على اعتقاد كونه سبباً في تلك الحوادث، وهذا شركٌ أصغر؛ لأنه جعل ما لم يجعله الله سبباً سبباً أي اعتقد السببية فيما لم يجعله الله سبباً.

■ الثالث: أَنْ يَسْبَبَ الدهر لا مع اعتقاده فاعلاً ولا سبباً؛ فهذا مُحَرَّمٌ، لما فيه من الاعتراض على القدر، كأن يقول على سبيل التبرُّم والضيق: هذا يومٌ نحس، أو هذا شهرٌ شؤم، يقوله اعتراضاً على القدر فهذا مُحَرَّمٌ.

أما إذا كان المقصودُ الخبرَ المحض دون السبب فهذا جائز، كما قال لوطٌ -عليه السلام-: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦] أي نَحْسَاتٍ على أعداء الله؛ لأنه أوقع بهم العقوبة فيها.

ومثله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف: ٤٨]، ومنه تسمية سَنَةٍ بِسَنَةِ المجاعة، وكأن يقال: هذا يومٌ شديد الحر، أو يومٌ شديد البرد، أو يومٌ قاتلٌ على سبيل الإخبار، فكلُّ ذلك إذا كان المقصودُ منه الخبرَ المحض لا الاعتراض والتبرُّم فهو جائز.

وقد أخذ بعضهم من قوله: (أَنَا الدَّهْرُ) أَنَّ الدهر من أسمائه تعالى، كنعيم بن حماد وابن حزم، وهذا القول يأباه سياق الحديث، فإنه قال: (وَأَنَا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) فَأَثْبَتَ مُقَلَّباً وَمُقَلَّباً، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الْمُقَلَّبُ هو الْمُقَلَّبُ، وبهذا يُعْلَمُ أَنَّهُ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الدَّهْرُ فِي الْحَدِيثِ مُرَاداً بِهِ اللَّهُ سبحانه وتعالى.

ثم إنَّ أسماءه - سبحانه وتعالى - حُسْنَى أي بالغَةُ في الحُسْنِ أكَمَلَه، والدَّهْرُ ليس فيه صِفَةُ كمالٍ، وأَسْمَاؤُهُ سبحانه مشتقة والدَّهْرُ اسمٌ جامد.

الحديث الثاني والعشرون

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ: «أَخْنَعُ الْأَسْمَاءِ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى بِمَلِكِ الْأَمْلاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» متفقٌ عليه.

(أَخْنَعُ الْأَسْمَاءِ) أي أَوْضَعُهَا وَأَذَلُّهَا، فالذي يتسمى بهذا الاسم يكون ذليلاً عند الله، وقد وردت في الأحاديث في ذم هذه التسمية خمسة ألفاظ: (أخنع)، و(أخبث)، و(أخنى) ومعناه: أفحش، و(أغيظ)، و(أكره).

والواردُ في الحديث: مَلِكِ الْأَمْلاكِ، ويُقاس عليه: قاضي القضاة، وحاكم المحاكم، وسلطان السلاطين.

ولقبُ قاضي القضاة اشتهر في المشرق لمُقَدِّمِ القضاة، ولم يزل المالكية في الأندلس من قديم يلتزمون لقب قاضي الجماعة، مُقابل لقب قاضي القضاة في المشرق.

قال ابن القيم - رحمه الله - في تحفة المودود: "وقد كان جماعةً من أهل الدين والفضل يتورعون عن إطلاق لفظ قاضي القضاة، وحاكم الحُكَّام؛ قياساً على ما يُبغضه الله ورسوله من التسمية بملك الأملاك"، قال: "وهذا محض القياس" يعني أن القياس الصحيح يقتضي إلحاق قاضي القضاة بملك الأملاك لعدم الفرق بينهما.

وقد ذكر ابن كثير - رحمه الله - في البداية والنهاية في حوادث سنة ثلاثين وأربع مئة أن بني بُوَيْه لما طغوا وبغوا وتمردوا وتسمى العزيز وهو آخر من تملَّك منهم ببغداد بملك الأملاك، قال ابن كثير - رحمه الله -: "وهو اسمٌ يُبغضه الله فسلبهم الله ما كان أنعم به عليهم، وجعل المُلْك إلى غيرهم".

الحديث الثالث والعشرون

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعِزَّزَ الْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهُ لَا مُكْرَهَ لَهُ**» متفقٌ عليه.

قال ﷺ: **(لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ)** هذا نهْيٌ عن الاستثناء في الدعاء.

قال: **(لِيَعِزَّزَ الْمَسْأَلَةَ)** أي ليجزم فيها، والاستثناء في الدعاء يدل على ضعف الرغبة وقلة العناية بالمطلوب، ويوهم أن الداعي كالمُستغني عن ربه جل وعلا.

قال: **(فَإِنَّهُ لَا مُكْرَهَ لَهُ)** وهذا الدعاء يوهم أن المُخاطَب يُمكن أن يأتي بالأمر عن مشيئة، ويمكن أن يأتي به إكراهًا، كأنه يقول: أنا لا أُكْرِهُكَ إِنْ شِئْتَ أَنْ تَغْفِرَ لِي فَاغْفِرْ لِي، وإن لم تشأ فلا تغفر، لذلك نُهي عن الاستثناء في الدعاء، وفي رواية لمسلم: **(وَلِيُعْظَمَ الرَّغْبَةُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاطَمُهُ شَيْءٌ أُعْطَاهُ)** والاستثناء في الدعاء يوهم أن هذا المسؤول عظيمٌ على الله تعالى، والله تعالى لا يتعاطمه شيءٌ أُعْطَاهُ.

الحديث الرابع والعشرون

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**اُخْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**» رواه مسلم.

قال ﷺ: **(اُخْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ)** أي اجمع نفسك على ما ينفعك في دينك ودنياك.

(وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ) أي اطلب العون منه ولا تَتَكَلَّ على قدرتك.

(وَلَا تَعْجِزْ) لا يَقْعُدْ بِكَ الْعَجْزُ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى مَرَادِكَ.

(وإنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ) أي وقعت عليك مصيبةٌ من قدر الله عز وجل (فلا تقل: لو أنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ) لا تقل تندمًا وتحسرًا: (لو أنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا) فكما يحرم استعمال (لو) في الاعتراض على الشرع وفي الاعتراض على القدر، فكذلك يحرم استعمالها تندمًا وتحسرًا على ما فات، بل استسلم واعلم أن ما جرى كان بقدر الله، فلا بد من التسليم له.

وضبطت في الحديث: (قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ)، و(قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ).

(فإنَّ (لو) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ) فهي مفتاح التَّسَخُّطِ والتَّحَسُّرِ والجَزَعِ مع ما فيها من اعتراضٍ على قدر الله، وهذا من عمل الشيطان فإنه يلقي في قلب العبد التحسر والحزن، ف(لو) تفتح وساوس الشيطان وتشكيكه، والشيطان يريد أن يحزن الذين آمنوا، وحكم الله الشرعي والقدري كله خيرٌ لعباده: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وهذا الحديث من أعظم أسباب السعادة لمن فقهه، وذلك أن الإنسان كائنٌ بين ماضٍ ومُستقبل:

- أما المُستقبل فيعمل فيه بقوله ﷺ: (أَحْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ) فيمضي في مصالحه بعزمٍ وجدٍّ مُستعيناً بربه، ولا يقعد به العجز عن مُرادِه.

- وأما الماضي الذي تبين فيه قدرُ الله، وجرى به القلمُ في اللوح المحفوظ؛ فيقول فيه: (قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ) ولا يتحسر؛ لأنَّ التَّحَسُّرَ لا يُغْنِي شيئاً ولا يردُّ مفقوداً.

كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣-٢٢].

و(لو) لها استعمالاتٌ أخرى غير الاعتراض على القدر، والاعتراض على الشرع، واستعمالها على جهة الندم والتحسر، من استعمالاتها:

▪ أن تُستعمل احتجاجاً بالقدر على المعاصي، كما قال المُشركون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠] وهذه كلها مذمومة.

و(لو) في الاعتراض على الشرع، وفي الاعتراض على القدر، وإذا قيلت على جهة الندم والتحسر، وإذا استُعملت في الاحتجاج بالقدر على المعاصي هذه كلها مذمومة.

▪ وقد تُستعمل للخبر المحض كأن يقول لك صاحبك: لو حفظت هذا المتن ستستفيد، ولو سلكت هذا الطريق ستصل فهذا جائز.

▪ وتُستعمل أيضاً للتمني، وهي بحسب المُتمنى، فمن تمنى وقال: لو أن لي مالاً لعملتُ به عمل فلان من الخير فكما قال ﷺ: (فهو بنيتُهُ فأجرُهُما سواءٌ)، وإذا قال: لو أني لي مالاً لعملتُ به عمل فلان من الشر فكما قال ﷺ: (فهو بنيتُهُ فوزُهُما سواءٌ).

الحديث الخامس والعشرون

عن أبي بن كعب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَسُبُّوا الرِّيحَ، فإذا رأيْتُمْ ما تَكْرَهُونَ فقولوا: اللهمَّ إنا نسألكَ من خيرِ هذهِ الرِّيحِ، وخيرِ ما فيها، وخيرِ ما أُمِرْتُ بِهِ، ونعوذُ بك من شرِّ هذهِ الرِّيحِ، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أُمِرْتُ بِهِ» رواه الترمذي.

قال ﷺ: (لا تَسُبُّوا الرِّيحَ) أي لا تذمُّوها إذا لحقكم بسببها أمرٌ تَكْرَهُونه، فإذا رأيْتُمْ ما تَكْرَهُونَ من شدةِ حرٍّ أو شدةِ بردٍ، أو قوةِ ريحٍ فقولوا: (اللهمَّ إنا نسألكَ من خيرِ هذهِ الرِّيحِ، وخيرِ ما فيها، وخيرِ ما أُمِرْتُ بِهِ).

فَالرَّيْحُ تَسُوقُ السَّحَابَ الثَّقَالَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثَقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وهي تُلَقِّحُ السُّحُبَ: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢].

وهذا أدبٌ نبويٌّ ينبغي أن يتأدب به المؤمن، فإذا رأى الرياح وهبوبها فلا يتبرم، فيُفْضِي به ذلك إلى سبِّها، وهي مُدَبَّرَةٌ لِّلَّهِ تَعَالَى، واللَّهِ -عز وجل- هو المُدَبِّرُ المُقَدِّرُ، فسبُّها اعتراضٌ على قدر الله. ويدخلُ في النهي سبُّ غيرها مما يُقَدِّرُهُ الله كالصواعق، لكن لو وقع ذلك على سبيل الوصف والخبر المحض، كأن يقول: هبَّت رِيحٌ عاتيةٌ أو باردة فلا حرج، وقد قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] فهذا وصفٌ للريح بالشدة، وإنما المحذور أن يصدر ذلك على سبيل السب والذم.

الحديث السادس والعشرون

عن عُمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقْتُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بَطَانًا» رواه الترمذي.

قال ﷺ: (لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ) تَوَكَّلُونَ أصله: تتوكلون، حذفت التاء الثانية تخفيفاً، قال ابن مالك:

وَمَا بَتَاءَيْنِ ابْتَدَى قَدْ يُقْتَصَرُ فِيهِ عَلَى تَا كَتَبَيْنِ الْعَبْرَ

(تغدو) أي تخرج أول النهار (خِمَاصًا) أي ضامرة البطن من الجوع (وتروح) أي ترجع آخر النهار (بطانًا) أي ممتلئة البطن من الشَّبَع.

قال ابن رجب - رحمه الله - في جامع العلوم والحكم: "هذا الحديث أصل في التوكل وأنه من أعظم الأسباب التي يُستجلبُ بها الرزق".

في الحديث الحثُّ على التوكل بل على كمال التوكل؛ لأنه قال: **(لو أنكم كنتم تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ)** ففيه الحثُّ على صدق الاعتماد على الله، وفيه أيضًا الحثُّ على بذل الأسباب وذلك في قوله: **(تغدو)** وقوله: **(تروح)**، فتحقيق التوكل لا يُنافي السعي في الأسباب، بل إنَّ ترك الأسباب سوءٌ فهمٍ للتوكل، وقد أمر الله تعالى ببذل الأسباب فقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾** [النساء: ٧١]، وقال تعالى: **﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾** [الجمعة: ١٠]، وعند الترمذي عن أنس رضي الله عنه - أنه قال: **(قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْقِلْهَا وَأَتَوَكَّلُ، أَوْ أَطْلِقْهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ)** فأرشدَه ﷺ إلى الجمع بين الأمرين: فعل السبب، والاعتماد على الله تعالى.

وقد قيل للإمام أحمد: ما تقول في رجلٍ جلس في بيته أو مسجده وقال: لا أعمل شيئًا حتى يأتيني رزقي؟ فقال الإمام أحمد: هذا رجلٌ جهل العلم، أما سمع قول النبي ﷺ: **(إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي)**، وقال حين ذكر الطير: **(تغدو خماصًا وتروح بطانًا)**.

وفي الحديث: أن من توكل على الله تعالى حصلت له الكفاية التامة، وقد قال تعالى: **﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** [الطلاق: ٣] أي كافيهِ من كل شيء في صحته، ورزقه، وقوته، وذريته، وغير ذلك، وإنما ذُكر الرزق في الحديث لشدة تعلُّق النفوس به.

الحديث السابع والعشرون

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يَنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ» متفقٌ عليه.

في الحديث إثبات صفة المحبة لله تعالى، والأدلة فيها كثيرة، فالله - سبحانه وتعالى - يُحِبُّ المتصفين ببعض الصفات؛ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَالْمُقْسِطِينَ، وَالْمُتَّقِينَ، وَالتَّوَابِينَ، وَالْمُتَطَهِّرِينَ، وَالصَّابِرِينَ، وَالْمُتَوَكِّلِينَ، وَيُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيَانٌ مَرْصُوصٌ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَلَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ. فالله سبحانه وتعالى يُحِبُّ المتصفين ببعض الصفات، وَيُحِبُّ بعض عباده، كما في الحديث الذي أورده المؤلف، ويحبُّ بعض الأقوال كما في الصحيحين: (كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ).

ويُحِبُّ بعض الأعمال أكثر من محبته لأعمالٍ أخرى ففي الحديث القدسي في صحيح البخاري: (وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افترضتُ عليه). وإذا عرف العبدُ أن ربه - سبحانه وتعالى - يُحِبُّ أوليائه ومن أطاعه، يُحِبُّ المؤمنين، وَالْمُتَّقِينَ، وَالْمُتَوَكِّلِينَ حَرَصَ على أن يكون من أهل هذه الصفات فيجتهد في تحقيق الإيمان والتقوى والتوكل، وكل ما يُحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال. وقد كان من دعائه ﷺ: (أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَحُبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يَقْرُبُ إِلَيَّ حُبُّكَ).

ومما يحملُ العبدَ على الحرص على بلوغ هذه المنزلة أن يعلم أن من أحبه الله كان معه، وسدّده في حركاته وسكناته، وجعله مُجاب الدعوة، وحيهاً عنده، كما في الحديث القدسي في صحيح البخاري: (وما يزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ)، وفي هذا الحديث الذي أورده المصنف: (فِيحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ).

الحديث الثامن والعشرون

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النَّبِيِّ ﷺ يروي عن ربه -جَلَّ وَعَلَا- قال: «وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ؛ إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمَّنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفَّتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رواه ابن حبان.

في الحديث فضيلة عظيمة للخوف من الله، وأنه أمان للعبد يوم الفزع الأكبر، قال تعالى في هذا الحديث القدسي: (إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

وفيه تحذير من الأمان من مكر الله، وأنه سبب للخوف يوم القيامة، قال تعالى في هذا الحديث القدسي: (وَإِذَا أَمَّنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفَّتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

وقد أمر الله بالخوف منه وجعله من لوازم الإيمان، قال تعالى: ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، والخوف نوعان:

- الأول: خوف عبادة، فهذا لا ينبغي إلا لله، ولا يجوز صرفه لغير الله، فمن خاف غير الله خوف عبادة فقد أشرك.

- والنوع الآخر: خوف طبيعي، وهو الذي جبل الله عليه بني آدم وركّبه في خلقهم؛ فهذا خوف طبيعي لا يلام عليه الإنسان، وقد وقع لأنباء الله، فإن موسى -عليه السلام-

لَمَّا أَمَرَهُ اللَّهُ بِالْقَاءِ الْعَصَا فَانْقَلَبَتْ ثَعْبَانًا ﴿وَلَيْ مُذْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ وقال له ربه: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

فلا يُلام الإنسان أن يخاف على نفسه من السَّيِّع أن يفترسه، أو العدو أن يقتله، أو النار أن تُحرقه، أو الماء أن يُغرقه، فكلُّ هذا من الخوف الطبيعي الذي لا يُلام عليه العبد. وينبغي أن يقرن العبدُ إلى الخوف الرجاء، فالخوف والرجاء كجناحي الطائر يطير بهما العبدُ في سماء العبودية، فإذا اعتدلا استطاع الطيران، وإذا اختلَّ واحدٌ منهما سقط الطائر؛ لذا أورد المصنف - وفقه الله - بعد حديث الخوف: ما يُورث العبد رجاء ما عند الله وحسن الظنِّ به.

الحديث التاسع والعشرون

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي» متفقٌ عليه.

(أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي) أي إن ظن العبد بالله خيرًا فله الخير، وإن ظن به سوى ذلك فله ما ظنه، لذا على العبد أن يُحسن الظن بالله، وأن يُعظم رجاءه فيما عند الله، وعلى قدر ظنِّ العبد يكون عطاؤه سبحانه وتعالى.

وكيف لا يرجو العبدُ ربَّه وهو سبحانه الذي وسعت رحمته كل شيء، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] هم الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي، ومع ذلك أضافهم الله إلى نفسه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾، ونهاهم عن القنوط من رحمته: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، وأخبرهم أنه يغفر الذنوب جميعًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ

الرَّحِيمُ [الزمر: ٥٣]، بل قال الله تعالى في الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم والذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً-: **﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** [المائدة: ٧٤]، وقال في أصحاب الأعداء: **﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾** [البروج: ١٠] قال الحسن البصري: "انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة".

وقال ﷺ للصحابه - رضي الله عنهم - في المرأة التي كانت تسعى تطلب ولدها إذا وجدت صبيّاً في السبي أخذته، فألصقته بطنها وأرضعته قال لهم: **﴿اتَّروْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ قَالُوا: لَا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَلَّا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: لِلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا﴾**.

وكلما ازداد العبد إيماناً ازداد خوفه ورجاؤه، فسار إلى ربه بين الرجاء والخوف، قال الشيخ ابن سعدي - رحمه الله -:

وَهُمُ الَّذِينَ بَنَوْا مَنَازِلَ سَيْرِهِمْ بَيْنَ الرَّجَا وَالْخَوْفِ لِلدِّيَانِ
وانظر إلى اقتران الخوف والرجاء في القرآن، قال تعالى: **﴿أَمِنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾** هذا الخوف **﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾** [الزمر: ٩] هذا الرجاء.
وقال تعالى: **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾** هذا الرجاء، **﴿وَرَهَبًا﴾** [الأنبياء: ٩٠] هذا الخوف.

وقال تعالى: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾** [الإسراء: ٥٧].

فينبغي للعبد أن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء، ينظر إلى تقصيره فيحدث ذلك له الخوف من الله، وينظر إلى عظيم فضل الله - سبحانه وتعالى - فيحدث ذلك له حُسن الرجاء.

الحديث الثلاثون

عن عائشة - رضي الله عنها - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «سَلُّوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟»، فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أَحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ» متفق عليه.

(بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ) أي جعله أميرًا عليها، فكان يؤمهم في الصلاة.
(وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾) أي أنه كان يُنهي قراءته في كل ركعة بسورة الإخلاص.

(فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «سَلُّوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟») أي ما سبب قراءته سورة الإخلاص بتلك الكيفية في كل ركعة؟

(فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أَحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا) لأن فيها صفة الرحمن وما يتصف به من صفات الكمال والعظمة على جميع خلقه، فلما أخبروا النبي ﷺ بقوله وبالسبب الذي ذكره أمرهم أن يُبشِّروه بأن الله يُحِبُّهُ فقال: (أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ).

وفي الحديث إثبات صفة المحبة لله تعالى، وقد سبق ذلك في حديث: (إِنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جَبْرِيلَ...) الحديث، وهو الحديث السابع والعشرون من هذه الأربعين.

وسورة الإخلاص سورة عظيمة، لم يصح عن النَّبِيِّ ﷺ في فضل سورة من سور القرآن أكثر مما صح في فضل سورة الإخلاص، سُميت سورة الإخلاص؛ لأن الله تعالى أخلصها لنفسه، فلم يذكر فيها إلا ما يتعلق بأسمائه وصفاته، ولأنها تُخلص قارئها من الشرك والتعطيل.

وهي تعدلُ ثلث القرآن، جاء هذا من حديث جماعة من الصحابة -رضي الله عنهم-، من ذلك ما في صحيح مُسلم عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- أن النَّبِيَّ ﷺ قال: **(أَيَعِزُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ)** أي تساوي ثلث القرآن.

ووجه كونها تعدلُ ثلث القرآن: أن القرآن اشتمل على ثلاثة مقاصد:

- الإخبار عن الله تعالى.

- والإخبار عن مخلوقاته، وهي القصص.

- والأحكام وهي الأوامر والنواهي.

وسورة الإخلاص تضمنت النوع الأول وهو الإخبار عن الله تعالى.

فموضوعات القرآن هي: التوحيد، والقصص والأخبار، والأحكام، وهذه السورة أخلصت في التوحيد، وفيها من أسماء الله تعالى: [الله، والأحد، والصمد]، فالله هو المألوه المعبودُ حُبًّا وتعظيمًا.

وفي القرآن آيتان هما كالنص في معنى هذا الاسم الكريم، قوله تعالى في سورة الأنعام: **﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾** [الأنعام: ٣] المعنى: هو المعبودُ في السماوات وفي الأرض؛ يعبدُه أهل السماوات وأهل الأرض.

وقوله تعالى في سورة الزخرف: **﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾** [الزخرف: ٨٤]، أي: معبودٌ في السماء ومعبودٌ في الأرض فهو المُستحقُّ للعبادة، وهذا الاسم

الكريم مُشْتَقٌّ من (الإله) حذفت الهمزة وأدغمت اللام في اللام فصارتا لامًا واحدةً مُشَدَّدَةً.

والأحد: هو المنفردُ عن كل شريكٍ ومماثل، والصَّمَد: هو الكامل في صفاته الذي افتقرت إليه جميعُ مخلوقاته، هذا ما تضمنته السورة من الأسماء. وفيها من الصفات: ما تضمنته الأسماء السابقة وهي: الألوهية، والأحدية، والصمدية.

وفيها كذلك نفى الولد؛ لأنه سبحانه غنيٌّ عن الولد ولا مثيل له. ونفى أن يكون مولودًا؛ فهو سبحانه خالق كل شيء، وهو الأول الذي ليس قبله شيء.

ونفى المكافئ له أي نفى المماثل له في الصفات؛ لأنه سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] لكمال صفاته.

والنفي يتضمن إثبات كمال الضد لله تعالى؛ فهذا النفي يتضمن إثبات كمال الأحدية والصمدية لله سبحانه وتعالى.

ومنهج أهل السنة والجماعة في الصفات قائمٌ على أصليين:

- إثبات بلا تمثيل.

- وتنزيه بلا تعطيل.

فأهل السنة يُثبتون الصفات التي أثبتها الله لنفسه دون تمثيل بصفات المخلوقين، ويُنزّهون الله تعالى عن نقص الصفات وعن مُشابهة المخلوقات دون تعطيل؛ فأخذوا بالحُسنيين: الإثبات والتنزيه، وسلموا من الإساءتين: التمثيل والتعطيل.

وقد ضلّ في هذا الباب طائفتان:

- الممثلة الذين يمثلون صفات الله بصفات الخلق.

- والمعطلة الذين يجحدون صفات الله تعالى وينفونها.

ولنُعِمْ بن حماد الخزاعي كلمة جليلة تُبيِّن وسطية أهل السُّنَّة والجماعة بين الممثلة والمعطلة، ذكرها الذهبي في ترجمة ابن قتيبة من سير أعلام النبلاء، قال الذهبي: وما أحسن قول نُعِمْ بن حماد الذي سمعناه بأصح إسناد عن محمد بن إسماعيل الترمذي أنه سمعه يقول: "من شبَّه الله بخلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهاً".

وقد قال أهل العلم: المُشَبَّه يُعْبَدُ صَنَمًا، والمُعْطَلُ يُعْبَدُ عَدَمًا، قال ابن القيم في النونية:

لَسْنَا نُشَبِّهُ وَصْفَهُ بِصِفَاتِنَا إِنَّ الْمُشَبَّهَ عَابِدُ الْأَوْثَانِ
كَأَنَّ لَا نُخْلِيهِ مِنْ أَوْصَافِهِ إِنَّ الْمُعْطَلَّ عَابِدُ الْبُهْتَانِ

ولابد من معرفة ثلاث قواعد في باب الأسماء والصفات:

القاعدة الأولى: أنه لا أعلم بالله من الله، قال تعالى: ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾

[البقرة: ١٤٠].

والثانية: أنه لا أحد من الخلق أعلم بالله من رسول الله ﷺ، قال ﷺ كما في البخاري: (إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا).

والثالثة: أن الله تعالى بالنسبة لنا غيبٌ لم نره، فلا مجال للكلام في هذا الباب إلا بتوقيف، فالحق في باب الصفات: أن نصف الله تعالى بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، ولا نتجاوز القرآن والحديث.

الحديث الحادي والثلاثون

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي» متفقٌ عليه.

في الحديث إثبات صفة الخلق، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]. وفيه إثبات الكتابة، قال ﷺ: (كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ).

وفيه إثبات العرش، والعرش في اللغة: سريرُ المَلِكِ الخاصُّ به ﴿قَالَ نَكُّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١].

أما العرش الذي استوى عليه ربنا كما يليقُ بجلاله فهو مخلوقٌ عظيمٌ ذو قوائمٍ تحمله الملائكة، وهو سقف العالم.

هو مخلوقٌ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، فالله تعالى الخالق وما سواه مخلوق.

وهو مخلوقٌ عظيم، وصُفَّ في القرآن بثلاث صفات:

■ العظمة، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦].

■ الكرم، قال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

■ المجد، قال تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]، على قراءة الجر، وبها قرأ من العشرة حمزة والكسائي وخلف العاشر، والباقون قرؤوا بالرفع.

وله قوائمٌ بدليل ما في البخاري من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: (إِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى -

عليه السلام- آخِذْ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أُدْرِى أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِي بِصَعْقَةِ الطُّورِ).

وللعرش حملةٌ من الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، وهؤلاء الذين يحملون العرش ملائكةٌ عظام، ثبت عند أبي داود عن جابر -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: (أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنْ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةٍ عَامٍ).

والعرش سقف العالم بدليل ما في البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: (إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَسَلُّوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ).

هذا ما يتعلق بهذا المخلوق العظيم الذي ذكره النبي ﷺ في هذا الحديث، وذكره الله تعالى في قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].

والاستواء معلومٌ في اللغة، كما قال الإمام مالك؛ فالاستواء في اللغة: العلو والارتفاع، وقد قال الخليل بن أحمد الفراهيدي إمام العربية: أتيت أبا ربيعة الأعرابي وكان من أعلم من رأيت، وكان على سطح، فلما رأيناه أشرنا إليه بالسلام، فقال: "استنوا" يعني ارتفعوا، قال الخليل: هذا من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] يقول: ارتفع إلى السماء وهي دُخان.

وأشهر ما قيل في تفسير الاستواء: أربع عبارات ترجع إلى معنى العلو والارتفاع، وهي التي ذكرها ابن القيم -رحمه الله- في النونية في قوله:

قَدْ حُصِّلَتْ لِلْفَارِسِ الطَّعَانِ	فَلَهُمْ عِبَارَاتٌ عَلَيْهَا أَرْبَعٌ
تَفَعَّ الَّذِي مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانٍ	وَهِيَ اسْتَقَرَّ وَقَدْ عَلَا وَكَذَلِكَ أَرُ
.....	وَكَذَاكَ قَدْ صَعِدَ الَّذِي هُوَ رَابِعٌ

ومذهب السلف في الاستواء وفي غير الاستواء من صفات الله تعالى الواردة في الكتاب والسنة: إثبات الجميع لله تعالى كما يليق بجلاله وكماله، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، كما قال الإمام مالك: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة".

وفي الحديث إثبات العلو لله سبحانه وتعالى، وأدلة إثبات العلو لله - سبحانه وتعالى - أكثر من ألف دليل قاله ابن القيم.

فكل دليل فيه تسمية الله تعالى بالعلي والأعلى هو دليل على إثبات العلو لله تعالى. وكل دليل فيه أن القرآن مُنَزَّل من الله تعالى هو دليل على إثبات العلو لله سبحانه وتعالى؛ لأن التنزيل يكون من أعلى:

▪ ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢].

▪ ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢].

▪ ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٣].

وكل دليل فيه ذكر صعود الأشياء إلى الله تعالى وعروجها إليه؛ فهو دليل على إثبات العلو لله سبحانه وتعالى:

▪ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

▪ ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤].

كذلك أدلة الاستواء وأدلة الفوقية؛ فالأدلة كثيرة جداً، وقد ذكر ابن القيم - رحمه الله - في إعلام الموقعين من أنواع الأدلة ثمانية عشر نوعاً، وتحت كل نوع تجد في الكتاب والسنة عشرات الأدلة، وقال في النونية:

يَا قَوْمَنَا وَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِنَا
أَلْفًا تَدُلُّ عَلَيْهِ بَلْ أَلْفَانِ
عَقْلًا وَنَقْلًا مَعَ صَرِيحِ الْفِطْرَةِ الـ
أُولَى وَذَوْقِ حَلَاوَةِ الْقُرْآنِ

كُلُّ يَدُلُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ السَّمَاءِ مُبَايِنُ الْأَكْوَانِ
أَتَرُونَ أَنَّا تَارِكُو ذَا كُلِّهِ لَجَعَا جِيعَ التَّعْطِيلِ وَالْهَذْيَانِ

وقد حصلت قصةً للهمذاني مع أبي المعالي الجويني، وقد كان الجويني يُنكرُ علو الله سبحانه وتعالى، فقال له الهمذاني: "ما ضرورةٌ يجدها أحدنا في نفسه، فما قال عارفٌ قطُّ يا الله إلا توجه بقلبه إلى السماء" فسكت الجويني وقال: "حَيَّرَنِي الْهَمْدَانِيُّ حَيَّرَنِي الْهَمْدَانِيُّ".

وحصلت قصةً قريبةً من هذه لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - مع أحد النُّفَاة، قال شيخ الإسلام في درء تعارض العقل والنقل: "كان عندي من هؤلاء النافين لهذا مَنْ هو مِنْ مشايخهم، وهو يَطلب مني حاجة، وأنا أخاطبه في هذا المذهب كأني غير منكرٍ له، وأخرتُ قضاء حاجته حتى ضاق صدره، فرفع طُرفه ورأسه إلى السماء وقال: "يا الله"، فقلت له: "أنت مُحَقِّقٌ لمن ترفعُ طرفك ورأسك؟ وهل فوق عندك أحد؟"، فقال: "أستغفر الله"، ورجع عن ذلك لما تبين له أن اعتقاده يُخالف فطرته، ثم بيَّنت له فساد هذ القول؛ فتاب من ذلك ورجع إلى قول المُسلمين المُستقر في فطرهم من إثبات العلو لله سبحانه وتعالى.

فالإقرار بعلو الله سبحانه وتعالى فطرةٌ لا يستطيع أحدٌ أن يُنكرها.

وأقسام علو الله سبحانه وتعالى ثلاثة ذكرها ابن القيم - رحمه الله - في قوله:

وَلَهُ الْعُلُوُّ مِنَ الْوُجُوهِ جَمِيعِهَا * ذَاتًا وَقَهْرًا مَعَ عُلُوِّ الشَّانِ

علو الذات معناه أن الله تعالى بذاته فوق خلقه.

وعلو القدر معناه أنه سبحانه وتعالى ذو قدرٍ عظيم لا يُساويه فيه أحدٌ من خلقه ولا

يعتريه معه نقص.

وعلو القهر معناه أن الله تعالى قَهَرَ جميع المخلوقات؛ فلا يخرج أحدٌ منهم عن سُلطانه وقهره.

وأدلة العلو: الكتاب، والسُّنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.

- أما الكتاب فسبق ذكر كثيرٍ من أدلته.

- وأما السُّنة فمِنْها حديث الباب.

- وأما الإجماع فهو معلومٌ بين السلف لم ينطق واحدٌ منهم بخلافه، ومن أحسن

ما كُتِبَ في هذا: كتاب العلو للعلي الغفار للإمام الذهبي، وانظر فيه إلى الآثار عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة الإسلام في إثبات العلو لله سبحانه وتعالى، وقد قال الإمام الأوزاعي: كنا والتابعون متوافرون نقول: "إن الله - عز وجل - فوق عرشه ونؤمن بما وردت به السُّنة من صفاته".

- وأما العقل: فلأن العلو صفة كمال، والله - سبحانه وتعالى - متصفٌ بكل كمال، فوجب ثبوت العلو له.

- وأما الفطرة فإن كل إنسانٍ مَفْطُورٌ على الإيمان بعلو الله، ولذا إذا دعا ربه وقال: يا رب لم ينصرف قلبه إلا إلى السماء.

ولا تظنَّ أنها مسألةٌ كلامية لا فائدة منها، بل هي عقيدةٌ عظيمة تؤثر في عبادتك وتبعث في قلبك الخوف والهيبة والتعظيم لله جل وعلا.

انظر كيف ربط الله سبحانه وتعالى بين الخوف منه والإيمان بعلوه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ

مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

تستشعرُ في دعائك وسجودك وجميع عباداتك أنك تدعو وتعبُدُ مَلِكًا عَظِيمًا قد استوى على عرشه، وأوامره تنزلُ إلى خلقه، وتصعدُ إليه أعمالهم؛ فإذا عَمِلْتَ عَمَلًا صَالِحًا صَعِدَ إِلَيْهِ عَمَلُكَ، لا تخفى عليه خافية، يسمعُ كل شيء، ويرى كل شيء، ويعلمُ

ما في الصدور وهو في العلو المطلق؛ فستشعرُ الخضوع والافتقار، وتجتهدُ في عبادته سبحانه وتعالى.

وفي الحديث إثبات صفة الرحمة لله تعالى، وإثبات سعتها، وأنها تسبقُ غضبه.

ورحمة الله سبحانه وتعالى نوعان:

- رحمة عامة وهي الشاملة لكل أحد:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

والنوع الآخر: رحمة خاصة، وهي الخاصة بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿وَكَانَ

بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] ويبيّن هذا ويوضحه قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ

شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي في الدنيا،

فما من مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه، ﴿فَسَأَكْتُبُهَا

لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ سأكتب رحمتي في الآخرة للذين يتقون، أما الكفار فليس لهم فيها

نصيب كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَلْبِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ [العنكبوت: ٢٣].

وهو - سبحانه وتعالى - أرحم الراحمين، أعظم رحمة تراها من الخلق في الدنيا:

هي رحمة الأم بولدها، والله - عز وجل - أرحم بعباده من الأم بولدها، في الصحيحين:

(أنه قَدِمَ على رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلم - بسبي، فإذا امرأة من السبي تبغي) أي

تطلب ولداً (إذا وَجَدَتْ صَبِيًّا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته) قال عمر بن

الخطاب - رضي الله عنه - : (فقال لنا رسول الله ﷺ: أترون هذه المرأة طارحةً ولدها في

النار؟ قلنا: لا والله، وهي تقدرُ على ألا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ: لله أرحم بعباده من

هذه بولدها).

لذلك كان سفيان الثوري - رحمه الله - يقول: "لو خُيرْتُ بين أن تُحاسبني أُمي، وأن يُحاسبني ربي لاخترت أن يُحاسبني ربي، ربي خيرٌ لي من أُمي".

ويوضح هذا ويزيده بياناً ما في الصحيحين من قوله ﷺ: (إِنَّ لِلَّهِ مِئَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فِيهَا يَتَعَاطِفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

والعبد كلما عظمت طاعته وزاد تقربُه لربه عظم نصيبه من استحقاق هذه الرحمة (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) [الأعراف: ٥٧]، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وفي الحديث إثباتُ صفة الغضب لله تعالى: والغضبُ معلوم، وغضبُ الله تعالى على من يستحقُّ الغضب عليه صفةُ كمال له سبحانه وتعالى.

وفي حديث الشفاعة الطويل في الصحيحين: كل واحدٍ من آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم -السلام- كلهم يقول: (إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ) نعوذ بالله من غضبه وعقابه.

الحديث الثاني والثلاثون

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لَا أَقُولُ {الْم} حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَا مٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ». رواه الترمذي.

هذا الحديث فيه عظيم أجر تلاوة القرآن وجزيل ثوابه، قال ﷺ: (مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ) يأجره الله على قراءته بأن يكون له بكل حرفٍ قرأه حسنة.

(والحسنةُ بعشرِ أمثالِها) أي يُضاعف الله له الأجر إلى عشرة أمثاله، وقد قال

تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]

(لا أقول {الم} حرفٌ، ولكن ألفٌ حرفٌ، ولا مٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ) وهذا تأكيدٌ

لما تشتمل عليه تلاوة القرآن من عظيم الأجر والجزاء.

وهذا الحديث جعله المؤلف مدخلاً للكلام عن صفة الكلام لله تعالى، والله سبحانه وتعالى - يتكلم بكلامٍ حقيقي؛ كيف شاء، متى شاء؛ بحرفٍ وصوت كما يليقُ بجلاله سبحانه وعظمته.

ثبت أنه بحرفٍ في أحاديث منها ما في صحيح مُسلم عن ابن عباسٍ -رضي الله عنهما- أنه قال: (بينما جبريلُ قاعدٌ عند النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- سمع نقيضاً من فوقه) أي صوتاً كصوت الباب إذا فُتح (فرفع رأسه، فقال: هذا بابٌ من السماء فُتح اليوم، لم يُفتح قطُّ إلا اليوم، فنزل منه ملكٌ، فقال: هذا ملكٌ نزل إلى الأرض لم ينزل قطُّ إلا اليوم، فسلم، وقال: أبشِرْ بنورينِ أوتيتهما، لم يؤتِهما نبيٌّ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرفٍ منهما إلا أُعطيته).

ومن ذلك أيضاً حديث الباب: (من قرأ حرفاً من كتابِ الله) وعلى القول بوقف هذا الحديث على ابن مسعودٍ -رضي الله عنه- فمثله لا يُقال بالرأي.

- وأما الصوت؛ ففيه أحاديث كثيرة، منها ما في الصحيحين: عن أبي سعيدٍ الخدري -رضي الله عنه- أنه قال: قال النبي ﷺ: (يقولُ اللهُ -عز وجل- يوم القيامة: يا آدَمُ، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادي بصوتٍ إنَّ اللهَ يأمرك أن تخرجَ من ذريتك بعثاً إلى النار).

وفي البخاري مُعلقاً من حديث عبد الله بن أنيس -رضي الله عنه-: (يحشُرُ اللهُ العبادَ فيناديهم بصوتٍ يسمعه من بُعدٍ كما يسمعه من قُربِ أنا الملك، أنا الديان).

والقرآن كلام الله منزلٌ غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، هو منزلٌ بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١].

وهو غير مخلوقٍ كما أجمع على ذلك أهل السُّنَّة، وقد قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فغاير بين الخلق والأمر، والقرآن من الأمر، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ولأن القرآن من كلام الله، وكلام الله صفةٌ من صفاته، وصفات الله غير مخلوقة، قال ابن أبي داود في الحائية:

وَقُلْ غَيْرُ مَخْلُوقٍ كَلَامُ مَلِكِنَا بِذَلِكَ دَانَ الْأَتَقِيَاءُ وَأَفْصَحُوا

بهذا المُعتقد وهو أن القرآن كلام الله غير مخلوق دان الأتقياء وأفصحوا، فهو معتقدهم الذي به يدينون، وعنه يُفصحون في كتبهم ومُصنَّفاتهم ومجالسهم، والنقول عنهم في ذلك كثيرةٌ جدًا.

وقد عقد اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة فصلًا سَمَّى فيه أكثر من خمس مئة نفسٍ كلَّهم يُقرُّر أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن من قال: إنه مخلوقٌ فهو كافر، قال ابن القيم -رحمه الله- في النونية:

وَلَقَدْ ثَقَّلَدَ كُفْرَهُمْ خَمْسُونَ فِي عَشْرِ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْبُلْدَانِ
وَاللَّالِكَائِيُّ الْإِمَامُ حَكَاهُ عَنَّهُمْ بَلْ حَكَاهُ قَبْلَهُ الطَّبْرَانِيُّ

(منه بدأ) أي أن الله تعالى هو الذي تكلم بهذا القرآن ابتداءً، أو (منه بدأ) ومعنى بدا: ظهر، أي أن كلام الله تعالى هو الذي تكلم به لا غيره.

(وإليه يعود) أي إليه يعود حكمًا ووصفًا، فهذا تأكيدٌ للجملة السابقة أو أن المراد (إليه يعود) أي يُرفعُ في آخر الزَّمان حين لا يُعْمَلُ به، فيُرفعُ من المصاحف ومن صدور الرجال، ويُسرى عليه في ليلة فلا يبقى في الأرض منه شيء كما ثبت عند ابن ماجه من حديث حُذيفة بن اليمان -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: (يَذْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا

يَدْرُسُ وَشَيْ الثَّوْبِ حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ، وَلَيْسَ رَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ).

فهذا معتقد أهل السُّنَّة والجماعة، أن القرآن كلام الله مُنَزَّلٌ غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود.

وقد قال الإمام أحمد: "القرآن كلام الله حيث تَصَرَّفَ" مراده: سواء حُفِظَ في الصدور أو كُتِبَ في السطور أو تُلِيَ باللسان أو سُمِعَ بالأذان فهو كلام الله حيثما توجه. قال الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله- في سُلَّم الوصول:

وَالْقَوْلُ فِي كِتَابِهِ الْمُفَصَّلِ	بِأَنَّهُ كَلَامُهُ الْمُنَزَّلُ
عَلَى الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى خَيْرِ الْوَرَى	لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ وَلَا بِمُفْتَرَى
يُحْفَظُ بِالْقَلْبِ وَبِاللِّسَانِ	يُتْلَى كَمَا يُسْمَعُ بِالْأَذَانِ
كَذَا بِالْأَبْصَارِ إِلَيْهِ يُنْظَرُ	وَبِالْأَيْدِي خَطُّهُ يُسَطَّرُ
وَكُلُّ ذِي مَخْلُوقَةٍ حَقِيقَةٍ	دُونَ كَلَامِ بَارِي الْخَلِيقَةِ
جَلَّتْ صِفَاتُ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ	عَنْ وَصْفِهَا بِالْخَلْقِ وَالْحَدَثَانِ
فَالصَّوْتُ وَالْأَلْحَانُ صَوْتُ الْقَارِي	لَكِنَّمَا الْمَثَلُ قَوْلُ الْبَارِي

هذا الذي قاله السلف: "الصوت صوت القاري والكلام كلام الباري"، لا بد من البيان

والتفصيل، لذا قال ابن القيم -رحمه الله-: بعد كلامه عن هذه المسألة في النونية:

فَعَلَيْكَ بِالتَّفْصِيلِ وَالتَّمْيِيزِ فَالْ * إِطْلَاقِ وَالْإِجْمَالِ دُونَ بَيَانِ
قَدْ أَفْسَدَا هَذَا الْوُجُودَ وَخَبَّطَا ال * أَذْهَانَ وَالْأَرْءَاءَ كُلَّ زَمَانِ

الحديث الثالث والثلاثون

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده**» متفق عليه.

محبة النبي ﷺ من أصول الإيمان، ولا نجاة لأحد من عذاب الله ولا وصول لأحد إلى رحمته إلا بالإيمان برسول الله ﷺ ومحبة وموالاته واتباعه، ولا يكون المؤمن كاملاً الإيمان حتى يُقدّم محبة الرسول ﷺ على محبة جميع الخلق، وهذه المحبة ليست بالادّعاء وإنما هي المحبة الصادقة التي تدعو إلى الاتّباع، فمن أحب النبي ﷺ كان هواه تبعاً لما جاء به.

مَنْ ادَّعَى حُبَّ الْكَرَامِ الْبَرَّةِ فَاسْتَشْهَدُوا أَخْلَاقَهُ وَسِيرَهُ
﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وهذه المحبة لها مقتضيات، منها:

- تصديقه ﷺ فيما أخبر.
- وطاعته فيما أمر.
- واجتناب ما نهى عنه وزجر.
- وألا يُعبد الله إلا بما شرعه الله على لسان رسوله ﷺ.

الحديث الرابع والثلاثون

عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَفَ فِي النَّارِ**» متفق عليه.

في الحديث إرشادٌ إلى ثلاث خصال هي من أعلى خصال الإيمان، من تحقق بها وجد حلاوة الإيمان؛ فالإيمان له حلاوة تُذاق بالقلب، كما أن حلاوة الطعام والشراب تُذاق بالفم.

وكما أن الجسد لا يجد حلاوة الطعام والشراب إلا عند صحته، فكذلك القلب لا يجد حلاوة الإيمان إلا عند صحته، فإذا صحَّ القلبُ وسَلِمَ من الأمراض وجد حلاوة الإيمان، واستلذ الطاعات، وآثرها على الدنيا.

● **الخصلة الأولى:** أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فيُقدم محبة الله تعالى، ومحبة رسوله ﷺ على جميع محابٍ نفسه.

● **والثانية:** أن يُحبَّ المرء لا يُحِبُّه إلا الله، فيكون حُبُّه لله، وبُغضه لله؛ وهذا حثٌّ على التَّحَابِّ في الله، وهو من أوثق عُرى الإيمان.

● **والثالثة:** أن يكره أن يعود في الكُفر كما يكره أن يُقذف في النار، فإن الإيمان إذا رسخ في القلب وذاق العبد حلاوته كان كارهاً لمُفارقته كما يكره الإلقاء في النار، وفيه تحذيرٌ من الكُفر بعد الإيمان -والعياذ بالله-، فالعودة إلى الكفر كالقاء الرجل نفسه في النار؛ لأن عاقبة الكُفر دخول النار.

الحديث الخامس والثلاثون

عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ -رضي الله عنه- قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ،**

وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُورُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّ جَبْرِيلَ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» رواه مُسْلِمٌ.

هذا حديثٌ عظيم، اشتمل على شرح الدين كله، كما قال النَّبِيُّ ﷺ في آخره: «فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».

وقد قال القُرطبي: هذا الحديث يصلح أن يُقال له: أُمُّ السُّنَّةِ، وقد أفردَه الشيخ عبدالمُحسن العباد بشرحٍ في كتابٍ مُستقل، سماه شرح حديث جبريل في تعليم الدين، وهو أول حديثٍ في صحيح مُسْلِمٍ، وحديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ...» أول حديثٍ في صحيح البخاري.

قال عُمر -رضي الله عنه-: (بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ)، هو جبريل عليه السلام، وهو مَلَكٌ لكنه في صورة رجل، ففيه أن الملائكة قد تأتي إلى البشر بصورة بشر، كما حصل لمريم الصِّدِّيقَة، وكما جاءت الملائكة إبراهيم ولوطاً -عليهما السلام- في صورة بشر.

(شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ) فيه أن أهل العلم وطُلابه ينبغي لهم تحسينُ هيئَتهم.

(لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِمَّا أَحَدٌ) عدم معرفتهم إياه يدلُّ على أنه مُسافرٌ

ليس من أهل البلد، لكنه شديدُ بياض الثياب، شديد سواد الشعر كأنه للتو خارجٌ من بيته لا يُرى عليه أثر السفر، وهذا يدعو إلى العجب؛ لأن العادة أن المُسافر يكون أشعث أغبر، أما هذا الرجلُ ففي هيئةٍ حسنة.

(حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ)، ما

المقصود هل وضع كفيه على فخذي نفسه، أو على فخذي النبي ﷺ؟

الجواب: جاءت رواية عند النسائي تُبيِّنُ هذا من حديث أبي هريرة وأبي ذر - رضي

الله عنهما - قال: (حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رُكْبَتَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)، هذا يُبين مَعَادَ الضمير، وأن الضمير يعود إلى النَّبِيِّ ﷺ.

وباعثه على وضع يديه على رُكْبَتَيْ النبي ﷺ المُبالغةُ في إظهار حاجته وافتقاره إلى

مقصوده.

«الإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ» الشهادتان هما

الأساس، فلا تنفعُ هذه الأركانُ ولا غيرها من الأعمال إذا لم تكن مبنيةً على الشهادتين:

شهادة أن لا إله إلا الله؛ التي تقتضي أن لا يُعبد إلا الله، وشهادة أن مُحمَّدًا رسول الله التي

تقتضي أن تكون العبادة وفقًا لما جاء به ﷺ؛ وهذان الأصلان لا بد منهما لقبول أي عمل:

الإخلاص والمُتابعة.

شَرَطُ قَبُولِ السَّعْيِ أَنْ يَجْتَمَعََا فِيهِ إِصَابَةٌ وَإِخْلَاصٌ مَعََا

لِلَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ لَا سِوَاهُ مُوَافَقَ الشَّرْعِ الَّذِي ارْتَضَاهُ

قال: «وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ» أي: تفعلها على الوجه الأقوم؛ والصلاة عمود الإسلام، وهي

أول ما يُحاسبُ عليه العبد يوم القيامة.

قال: «وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ» أي: تُعطيها مُستحقيها، والزكاة قرينة الصلاة في كتاب الله.

قال: «وَتَصُومَ رَمَضَانَ» الصَّوْمُ هو الإمساك عن المُفْطَرَّاتِ تعبدًا لله تعالى من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس.

قال: «وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» الحجُّ قصد الكعبة لأداء المناسك المعروفة، وهو واجبٌ مرةً في العمر.

قال: (قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ...») الحديث.

أجاب النَّبِيُّ ﷺ عن الإسلام بالأمور الظاهرة، وعن الإيمان بالأمور الباطنة، والإسلامُ والإيمانُ من الألفاظ التي إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت أي إذا اجتمعت في السياق افترقت في المعنى، وإذا افترقت في السياق اجتمعت في المعنى، مثل: (الفقير - والمسكين)، (البر - والتقوى).

ففي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ [آل عمران: ٨٥] الإسلام هنا يشمل الدين كله.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥] الإيمان هنا يشمل الدين كله.

لكن إذا اجتمعا في السياق كما في حديث جبريل هذا؛ فإنهما يفترقان في المعنى، فيُفسَّرُ الإسلامُ بالأمور الظاهرة، ويُفسَّرُ الإيمانُ بالأمور الباطنة.

قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ» والإيمان بالله يتضمن الإيمان بأربعة أشياء:

- بوجوده.

- وربوبيته أي بإفراده تعالى بأفعاله من الخلق والرزق والمُلْك والتدبير إلى غير ذلك من معاني ربوبيته.

- وألوهيته أي بأفعال العباد، كالدعاء والخوف والرجاء والتوكل، وغير ذلك من أنواع العبادة كلها لله، لا تُجْعَلُ لغيره.

- وأسمائه وصفاته بإثبات ما أثبتته لنفسه، وأثبتته له رسوله ﷺ كما يليق بجلاله وعظمته، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

وَكُلُّ مَا لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ أَثْبَتَهَا فِي مُحْكَمِ الْآيَاتِ
أَوْ صَحَّ فِيمَا قَالَهُ الرَّسُولُ فَحَقُّهُ التَّسْلِيمُ وَالْقَبُولُ
نُمرُّهَا صَرِيحَةً كَمَا أَتَتْ مَعَ اعْتِقَادِنَا لِمَا لَهُ اقْتَضَتْ
مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَغَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ
بَلْ قَوْلُنَا قَوْلُ أئِمَّةِ الْهُدَى طُوبَى لِمَنْ بِهِدِيهِمْ قَدْ اهْتَدَى

قال: «وملائكته» وهم خلقٌ من خلق الله خلقوا من نور، ذوو أجنحة، لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، منهم الموكَّل بالوحي، ومنهم الموكَّل بالقطر، ومنهم الموكَّل بالموت، ومنهم الموكَّل بالأرحام، ومنهم الموكَّل بالجنة، ومنهم الموكَّل بالنار؛ وكلهم مُنقادون لله تعالى:

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩].

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

وقد سُمي منهم في الأدلة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومالك، ومُنكر، ونكير، نؤمنُ بهم جميعاً من سُمي منهم ومن لم يُسم عليهم السلام.

قال: «وكتبه» وذلك بالإقرار بكل كتاب أنزله الله تعالى على رسولٍ من رُسله، وباعتقاد أنها حق، وأنها مُنزلةٌ غير مخلوقة، ومنها ما سُمي كالقرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وصُحف إبراهيم وموسى، ومنها ما لم يُسم.

قال: «ورُسليه» وذلك بالتصديق والإقرار بأن الله تعالى اصطفى من البشر رُسلاً يُخرجون الناس من الظُّلمات إلى النور؛ منهم من قُص علينا في القرآن، ومنهم من لم

يُقصص، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

والذين سُمُّوا في القرآن خمسة وعشرون، وقد جُمِعَ منهم ثمانية عشر في سياقٍ واحد، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦].

هؤلاء ثمانية عشر، قال الناظم:

فِي {تِلْكَ حُجَّتُنَا} مِنْهُمْ ثَمَانِيَّةٌ * * * مِنْ بَعْدِ عَشْرِ وَيَبْقَى سَبْعَةٌ وَهُمْ
إِدْرِيسُ هُودُ شُعَيْبٌ صَالِحٌ وَكَذَا * * * ذُو الْكِفْلِ آدَمُ بِالْمُخْتَارِ قَدْ خُتِمُوا

قال: «وَالْيَوْمَ الْآخِرِ» والإيمان باليوم الآخر يتضمن ثلاثة أمور:

- الأول: البرزخ، والبرزخ من خروج الروح إلى نفخة البعث، ومن ذلك: فتنة القبر بسؤال الملكين: (من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟)، ومن ذلك: نعيم القبر وعذابه.

- والثاني مما يتضمنه الإيمان باليوم الآخر: يوم القيامة، وهو من البعث إلى دخول الجنة أو النار، ومن ذلك: تطاير الصحف، والحوض، والميزان، والصراط، والشفاعة، ونحو ذلك مما يكون في عرصات القيامة.

- والثالث: الجنة والنار وما فيهما.

ويدخل في الإيمان باليوم الآخر: أشراط الساعة؛ فهي مُقَدِّمَاتُ لليوم الآخر، وعلامات على قربهِ: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾

[محمد: ١٨].

قال: «وَتُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» قال ابن القيم -رحمه الله- في القدر: "إنه بحرٌ مُحِيطٌ لا ساحل له، ولا خروج عنه لأحدٍ من العالمين، والشرع فيه سفينة النجاة، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها فهو من المغرّقين".

والإيمان بالقدر أربع مراتب: هي العلم، والكتابة، والمشیئة، والخلق.

عِلْمٌ كِتَابَةٌ مَوْلَانَا مَشِئَتُهُ وَخَلْقُهُ وَهُوَ إِجَادٌ وَتَكْوِينٌ

■ المرتبة الأولى: العلم فنؤمن بأن الله تعالى علم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن

لو كان كيف يكون، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٦٢].

■ المرتبة الثانية: الكتابة فنؤمن بأن الله كتب كل شيء، في صحيح مُسلم عن عبد الله

ابن عمر -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) قال: (وعرشه على الماء).

■ المرتبة الثالثة: المشیئة، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

[التكوير: ٢٩].

■ المرتبة الرابعة: الخلق، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢].

قال: (قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ

فَإِنَّهُ يَرَاكَ») الإحسان أعلى الدرجات، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، واقف بين يديه تراه، ومن كان كذلك فإنه يأتي بالعبادة على التمام والكمال، وإن لم يكن على هذه الحال فعليه أن يستشعر بأن الله مطلعٌ عليه لا يخفى على الله منه شيء، ومن استشعر ذلك أحسن في عمله.

قال: (قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُورُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ») لا

يعلم متى تقوم الساعة إلا الله، وقد قال النبي ﷺ: (مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ) ثم قرأ: ﴿إِنَّ

اللَّهُ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية.

وقال تعالى: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾** [الأعراف: ١٨٧].

وفيه: أن من سُئِلَ عما لا يعلم فينبغي أن يقول: لا أعلم، أو يقول: الله أعلم، وقد سُئِلَ الإمام مالكٌ عن ثمانٍ وأربعين مسألة، فقال في ثنتين وثلاثين منها: "لا أدري"، قال تعالى: **﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾** [الإسراء: ٣٦].

قال الإمام مالك: سمعت ابن هرمرز يقول: "ينبغي للعالم أن يُورَثَ جلساءه من بعده: لا أدري، حتى يكون أصلاً في أيديهم؛ فإذا سُئِلَ أحدهم عن ما لا يعلم قال: لا أدري".

وَمَنْ كَانَ يَهْوَى أَنْ يُرَى مُتَّصِدًّا وَيَكْرَهُ لَا أَذْرِي أَصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ

قال: **(قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا)** أي علامتها، فذكر النبي ﷺ علامتين من علامات قيام الساعة:

- **(قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَةُ رَبَّتَهَا»)**، فُسر باتساع الإسلام واستيلاء أهله على بلاد الشرك وسبي الذراري، فإذا ملك الرجل الجارية واستولدها كان الولد منها بمنزلة ربه؛ لأنه وَلَدُ سَيِّدِهَا، فيصير ولد الأمة بمنزلة ربه وسيدها، وهذا قول الأكثرين في تفسير: **«أَنْ تَلِدَ الْأُمَةُ رَبَّتَهَا»**.

وفُسرَ بالعقوق حيث يكون الأولاد كأنهم سادةٌ لأبائهم وأمهاتهم؛ يُعاملونهم معاملة السيد أُمته، نسأل الله العافية، ورجح هذا الوجه الحافظ ابن حجر في فتح الباري.

- قال: **(«وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»)**، **الحُفَاةُ:** هم الذين لا يتنعلون، **والْعُرَاةُ:** الذين لا يلبسون ما يستر عوراتهم، **والعالة:** الفقراء، **والرِّعَاءُ:** الذين يرعون بهائم الأنعام من الإبل والبقر والغنم.

سبحان الله! كأن النبي ﷺ ينظر إلى زماننا ويصفه، يوجد في زماننا من كان يرمى الغنم، وهو اليوم من أصحاب ناطحات السحاب!

قال: (قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا) أي: زمناً، وورد في السُّنن تقديره بثلاث، وهو صالحٌ أن يكون المراد ثلاثة أيام، أو ثلاث ليال.

ثم قال: ((يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟)) قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».

وهذا الحديث حديثٌ عظيم، فمن كانت عنده مثلاً دورة علمية للعوام في تعليمهم شيئاً من الدين؛ فلعلَّ هذا الحديث من أولى ما يُعَلِّمُوه.

الحديث السادس والثلاثون

عن البراء بن عازب -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ قَالَ: نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ، فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فيقول: رَبِّيَ اللَّهُ، وَنَبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}». رواه مُسلم.

وزاد أحمد في روايته: «فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام».

في الحديث ذكرُ الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها، وهي معرفة العبدِ ربَّه ودينه ونبيه محمدًا ﷺ، وقد ثبت في حديث البراء بن عازب -رضي الله عنهما- أن العبد إذا وضع في قبره يأتيه ملكان فيُجلسانه ويقولان له: (مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟) فأما المؤمن (فيقول: رَبِّيَ اللَّهُ وَدِينِي الإسلام وَنَبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ) (فينادي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيْبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ).

وأما غير المؤمن، فيقول في الأسئلة الثلاثة: (هاه هاه، لا أدري)، (فِينَادِي مُنَادٍ مِّنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، قَالَ: وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ) نسأل الله العافية.

فمعرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمدًا ﷺ هذا هو العلم النافع الذي ينفعك في قبرك، ومن عرف هذه الثلاثة كان حريًّا أن يُثبت عند سؤال الملكين في القبر.

وَأَنْ كُلًّا مُّقْعَدٌ مَسْئُورٌ مَا الرَّبُّ مَا الدِّينُ وَمَا الرَّسُولُ؟
وَعِنْدَ ذَا يُثَبَّتُ الْمُهَيِّمُنُ بِثَابِتِ الْقَوْلِ الَّذِينَ آمَنُوا
وَيُوقِنُ الْمُرْتَابُ عِنْدَ ذَلِكَ بِأَنَّمَا مَوْرِدُهُ الْمَهَالِكُ
ففي هذا الحديث إثباتُ فتنة القبر، وقد قال ﷺ: (إِنَّهُ قَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ، مِثْلَ - أَوْ قَالَ: قَرِيبًا مِنْ - فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ).

والفتنة ليست خاصّةً بهذه الأمة بل هي للأمم كلها، وقد جاء في الأدلة أنه يُستثنى من هذه الفتنة أصنافٌ من الناس:

- الصنف الأول: **الأنبياء**؛ لأن الأنبياء يُسأل عنهم فلا يُسألون في قبورهم.
- والصنف الثاني: **الشهداء**؛ لما عند النسائي من أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ: (مَا بَالُ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ إِلَّا الشَّهِيدَ قَالَ: كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً).
- والصنف الثالث: **من مات مُرَابِطًا**، في صحيح مُسلم أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَان).
- والصنف الرابع: **من مات يوم الجمعة أو ليلتها**، عند الترمذي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ إِلَّا وَقَاهُ اللَّهُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ).

- والصنف الخامس: **من لا تكليف عليه**، كالصغير والمجنون؛ لأن الفتنة فرعُ

التكليف، فمن لا تكليف عليه لا يُفتن في القبر.

والحديث دليلٌ على أن عذاب القبر حقٌّ، ومما يدلُّ على ذلك من القرآن قوله

تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ

العَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، الواو تُقتضي المُغايرة، فيكون عرضهم على النار غدوًّا وعشيًّا حاصلًا

في البرزخ وهم في قبورهم، ثم يوم القيامة يُدْخَلُونَ أَشدَّ العذاب في نار جهنم.

ومن السنة: قوله ﷺ: (إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ

بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ

الدَّجَالِ) أخرجه مُسلم.

وأسباب عذاب القبر كثيرة، لكن السبب المُجَمَّل الذي يجمعها كلها المعاصي، قال

الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤]، ثبت عن أبي هريرة

-رضي الله عنه- أنه فسَّر المعيشة الضنك بعذاب القبر.

وهناك أسبابٌ مُفَصَّلة مثل: عدم الاستنزاه من البول، والنميمة كما ورد في حديث

صاحبي القبرين، وكذلك الزنا، والربا، والنوم عن الصلاة، وقد ورد في هذا كله أحاديث.

وأما الوقاية من عذاب القبر: فالسبب المُجَمَّل لها هو العمل الصالح، قال تعالى:

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]، قال مُجاهد: في القبر.

والأسباب المُفَصَّلة كثيرة، من أهمها: قراءة سورة تبارك كل ليلة، ثبت عند النسائي

في الكبرى عن ابن مسعود -رضي الله عنه- أنه قال: (مَنْ قَرَأَ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾

[الملك: ١] كُلَّ لَيْلَةٍ مَنَعَهُ اللَّهُ بِهَا مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَكُنَا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نُسَمِّيها المانعة،

وإنها في كتاب الله سورةٌ مَنْ قَرَأَ بِهَا فِي كُلِّ لَيْلَةٍ فَقَدْ أَكْثَرَ وَأَطَابَ).

ومنها: كثرة الاستعاذة من عذاب القبر، ومنها: الشهادة والرباط، كما سبق أن الشهيد والمُرباط يُؤمَّنان من فتنه القبر، ومن باب أولى أن يُؤمَّنا من عذابه.

الحديث السابع والثلاثون

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «**لا تَسُبُّوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**» متفق عليه.

الصحابي: من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ومات على الإسلام. وبذكر الصحابة تنزيُّنُ المجالس، كما قالت عائشة - رضي الله عنها -: **(زَيَّنُوا مَجَالِسَكُمْ بِذِكْرِ عُمَر)**.

وهم أفضل البشر بعد الأنبياء، وقد جاء في الكتاب والسنة من فضائلهم ومراتبهم ما لا يُستطاع إحصاؤه.

وهذا الحديث حديثٌ عظيمٌ يتحير العقلُ في تصوُّر وإدراك حقيقة ما فيه. جبلٌ أحد طوله سبعة كيلو متر تقريبًا، وعرضه ما بين اثنين كيلو متر إلى ثلاثة، وارتفاعه أكثر من ألف متر، إذا كان هذا طولُ الجبلِ وعرضه وارتفاعه فكم وزنه؟! لو أن أحدًا أنفق هذا القدرَ العظيمَ والنفقةُ كُلُّها من الذهب، فما أعظم ثوابه عند الله! وانظر في المُقابل؛ المُدُّ الذي هو مِلءُ الكفين المجموعتين، ونصف المُدُّ وهو مِلءُ الكَفِّ الواحدة، يعني تقريبًا ربع كيلو من الأرز. لو تصدق الصحابيُّ بهذا المقدار أي بمِلءِ كَفٍّ واحدة فأجره أعظمُ من ذاك الذي أنفق مثل جبل أُحُدٍ والنفقةُ كُلُّها من الذهب!

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾

ثم هذا الخطاب متوجهٌ إلى متأخري الإسلام من الصحابة، فلو أنفق أحد متأخري الإسلام من الصحابة مثل أحدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحد مُتقدميهم ولا نصيفه، فما الظن في فضيلة الصحابة على من جاء بعدهم؟!

وما أجمل ما قال عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- كما في جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر - قال: "من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد ﷺ فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قومًا اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم".

لذا كان من أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول ﷺ، امتثالاً لهذا الحديث، والسكوت عما شجر بينهم. وقد قال عمر بن عبد العزيز في ذلك: "تلك دماء طهر الله منها يدي فلا أحب أن أخضب بها لساني".

وسئل بعض السلف عما شجر بينهم فقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]. قال القحطاني في نونيته:

دَعْ مَا جَرَى بَيْنَ الصَّحَابَةِ فِي الْوَعَى	بِسُيُوفِهِمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ
فَقَتِيلُهُمْ مِنْهُمْ وَقَاتِلُهُمْ لَهُمْ	وَكِلَاهُمَا فِي الْحَشْرِ مَرْحُومَانِ
وَاللَّهُ يَوْمَ الْحَشْرِ يَنْزِعُ كُلَّ مَا	تَحْوِي صُدُورُهُمْ مِنَ الْأَضْغَانِ

وهذه الأخبار لا تؤخذ من كتب التاريخ، وإنما تؤخذ من صحيح السنة، قال القحطاني في النونية:

لَا تَقْبَلَنَّ مِنَ التَّوَارِيخِ كُلِّ مَا	جَمَعَ الرُّوَاةُ وَخَطَّ كُلُّ بَنَانٍ
--	---

ارْوَ الْحَدِيثَ الْمُنتَقَى عَنْ أَهْلِهِ سِيمَا ذَوِي الْأَحْلَامِ وَالْأَسْنَانِ
كَابِنِ الْمُسَيِّبِ وَالْعَلَاءِ وَمَالِكِ وَاللَّيْثِ وَالزُّهْرِيِّ أَوْ سُفْيَانَ

وما أجمل تلك الكلمة التي ختم بها شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - كلامه عن مُعتقد أهل السنة والجماعة في الصحابة في الواسطية، قال - رحمه الله -: "وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ، لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنََّّهُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى".

الحديث الثامن والثلاثون

عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: دَعَانَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَبَايَعَنَا، فَكَانَ فِيْمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: «أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ» قال: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ» متفقٌ عليه.

(فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا) أي في الأمر الذي إذا أُمِرَ به الإنسان نَشِطَ له لأنه يُلائمه، وفي الأمر الذي إذا أُمِرَ به لم ينشط له.

(وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا) أي في حال الفقر والغنى.

(وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا) أي ولو اخْتَصَّ وَلِيُّ الْأَمْرِ نَفْسَهُ بِأُمُورِ الدُّنْيَا دُونَنا ظُلْمًا وَتَعَدِّيًّا فالواجب الصبر.

(وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ) وذلك بترك الخروج، وترك شق عصا المسلمين حتى لا يتسبب ذلك في سفك الدماء وهتك الحرم.

(إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا) أي ظاهرًا يَجْهَرُ وَيُصْرِّحُ بِهِ.

(عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ) أي نصٌّ صريحٌ من القرآن أو السُّنَّة الصحيحة لا يحتمل التأويل في أن هذا الفعل كُفر.

في الحديث: وجوب السمع والطاعة في غير المعصية، وقد قال ﷺ كما في الصحيحين: (السَّمْعُ والطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ).

وقد أجمع العلماء على وجوبها في غير معصية، وعلى تحريمها في معصية. وقال سهل بن عبد الله التستري: "لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء، فإن عظموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم، وإن استخفوا بهذين أفسدوا دنياهم وأخراهم".

وولاية الأمر تكون بواحدٍ من ثلاثة أمور:

- إما أن يُنصَّ الخليفة على من بعده.
- أو أن يتفق أهل الحل والعقد على خليفة.
- أو أن يكون ذلك بالقهر والغلبة.

وقد جمعها السفاريني في قوله:

وَنَصْبُهُ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ وَقَهْرُهُ فَحُلٌّ عَنِ الْخِدَاعِ

(وَنَصْبُهُ) أي نصبٌ وليّ الأمر.

تكون ولاية الأمر بواحد من هذه الثلاثة:

- الأول: النصّ بأن يُنصَّ الخليفة على من بعده أي أن يعهد إلى رجلٍ أن يلي الخلافة بعده، كما حصل في استخلاف أبي بكرٍ لعمر رضي الله عنهما، وقد قال عمر -رضي الله عنه- في مرض موته لما طُلب منه أن يستخلف قال: "إن أستخلف فقد استخلف من هو خيرٌ مني: أبو بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خيرٌ مني: رسول الله صلى الله عليه وسلم".

▪ الثاني: أن يتفق أهل الحَلِّ والعقد على تعيين خليفة، فيكون خليفةً بذلك، وقد دل على ذلك اتفاق الصحابة على اختيار أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

▪ والثالث: التَّغْلِبُ بأن يتغلب رجلٌ على الناس فيستقر له الأمر، كما حصل من انتزاع أبي العباس السفاح الخلافة من بني أُمَيَّة، فمن تغلب واستقر له الأمر وجبت طاعته إخمادًا للفتنة وحقنًا للدماء، وحفظًا لبيضة المسلمين وهذا محل إجماع.

ومن حق ولاية الأمر على الرعية: النصح لهم، كما قال النبي ﷺ: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ. قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ).

والنصيحة تكون سرًّا برفق، يدلُّ لذلك قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣-٤٤]، هذا وهو فرعون!

وفي الصحيحين أنه قيل لأسامة -رضي الله عنه-: (أَلَا تَدْخُلُ عَلَىٰ عُثْمَانَ فَتُكَلِّمُهُ؟ فَقَالَ: أَتَرَوْنَ أَنِّي لَا أُكَلِّمُهُ إِلَّا أَسْمِعُكُمْ؟ وَاللَّهِ لَقَدْ كَلَّمْتُهُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، مَا دُونَ أَنْ أَفْتَحَ أَمْرًا لَا أَحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ) يعني ما أحب أن يكون في كلامي ما يثير فتنة أو شرًا. وقد أخرج الإمام أحمد عن عياض بن غنم -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: (مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لَذِي سُلْطَانٍ بِأَمْرٍ فَلَا يُبْدِ لَهُ عَلَانِيَةً، وَلَكِنْ لِيَأْخُذَ بِيَدِهِ؛ فَيَخْلُوَ بِهِ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فِذَاكَ، وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ).

ومن النصح لهم: الدعاء لهم وعدم الدعاء عليهم، وقد جاء عن غير واحدٍ من السلف أنهم كانوا يقولون: "لو كان لنا دعوةٌ مُجَابَةٌ لدعونا بها للسُّلْطَانِ" منهم الإمام أحمد، والفُضَيْل بن عياض، وقد قيل للفُضَيْل: "فَسِّرْ لَنَا هَذَا" فقال: "إِذَا جَعَلْتُهَا فِي نَفْسِي لَمْ تَعُدْنِي، وَإِذَا جَعَلْتُهَا فِي السُّلْطَانِ صَلَحَ فَصَلَحَ بِصَلَاحِهِ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ، فَأَمَرْنَا أَنْ نَدْعُو

لهم بالصلاح، ولم نؤمر أن ندعو عليهم وإن ظلموا وإن جاروا؛ لأن ظلمهم وجورهم على أنفسهم، وصلاحهم لأنفسهم وللمسلمين".

وإذا حصل منهم فسق أو جور فإنه لا يجوز الخروج عليهم بذلك؛ لأنه يترتب على الخروج عليهم من الفوضى والفساد أضعاف أضعاف ما يحصل من جورهم. وقد قال النبي ﷺ كما في الصحيحين من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-: (مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُفَارِقُ الْجَمَاعَةَ شَبْرًا فَيَمُوتَ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً).

الحديث التاسع والثلاثون

عن العرباض بن سارية -رضي الله عنه- قال: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعَيُونَ، وَوَجَلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مُودَّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبْشِيٌّ، فَإِنَّهُ مِنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمَحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بَسَنَّتِي وَسَنَّةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَصُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ» رواه الترمذي.

(وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-) أَي نَصَحْنَا وَوَصَّانَا، وَالْمَوْعِظَةُ هِيَ الْبَيَانُ الْمَصْحُوبُ بِالترغيبِ أَوْ الترهيبِ أَوْ هُمَا مُعًا.

وَصَفَّ الْعَرِبَاضُ بْنُ سَارِيَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- هَذِهِ الْمَوْعِظَةَ بِثَلَاثِ صِفَاتٍ:

- الصفة الأولى: أَنَّهَا بَلِيغَةٌ، فَهِيَ مَوْعِظَةٌ تَصِلُ إِلَى الْقُلُوبِ وَتُؤَثِّرُ فِيهَا.

- والصفة الثانية: أَنَّهَا ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعَيُونَ أَي جَرَى دَمْعُهَا.

- والصفة الثالثة: أَنَّهَا وَجَلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ أَي خَافَتْ.

ولم يقع في شيء من طُرُق الحديث التصريحُ بها وسَوْقُ ألفاظها.

(فقال رجل: إن هذه موعظةٌ مودِع، فماذا تعهدُ إلينا يا رسول الله؟) هذه الموعظةُ من

النَّبِيِّ ﷺ كانت تُشبه موعظة المودِع، فلما كان فيها ما يُشعِرُ بالتوديع طلب الصحابة من النبي ﷺ أن يعهد إليهم بوصية لأن الوصية عند الوداع لها وقعٌ في النفوس، فأوصاهم النبي ﷺ بأربعة أمور، وهي وصيةٌ لهم ولكل من بعدهم.

■ **الوصية الأولى: (أوصيكم بتقوى الله)** وتقوى الله: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه وقايةً بفعل الأوامر واجتناب النواهي، والتقوى سببٌ كل خيرٍ في الدنيا والآخرة.

■ **الوصية الثانية: (والسمع والطاعة وإن عبدٌ حبشيٌّ)** السَّمْع: القبول، والطاعة: الامتثال والانقياد، والعبدُ ليس أهلاً للخلافة بالإجماع، لكن المقصود المبالغة في لزوم السمع والطاعة.

قال: **(فإنه من يعيش منكم يرَ اختلافًا كثيرًا)** وقد وقع هذا فالذين طالت أعمارهم من الصحابة أدركوا اختلافًا كثيرًا؛ فخرج الخوارج والقدرية وغيرهم؛ فهذا من دلائل نبوته ﷺ.

■ **الوصية الثالثة: (وإياكم ومحدثات الأمور، فإنها ضلالةٌ)** وهذه الجملة فيها التحذير من البدع، وقد قال ﷺ: **(من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ)** أي مردودٌ على صاحبه غير مقبولٍ منه.

وقد صحَّ عن ابن عُمر -رضي الله عنهما- أنه قال: "كل بدعةٍ ضلالةٌ وإن رآها الناس حسنة".

وقال الإمام مالك: "من ابتدع في الإسلام بدعةً يراها حسنة فقد زعم أن مُحمداً ﷺ خان الرسالة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] فما لم يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا".

▪ الوصية الرابعة: (فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسُنَّةي وسُنَّة الخلفاء الراشدين

المهديين عَضُوا عليها بالنواجذ) الوصية الرابعة هي لزوم سُنَّة النبي ﷺ وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، هذا هو طريق النجاة والسلامة من التفرق والاختلاف.

وقوله ﷺ: (عَضُوا عليها بالنواجذ) حَثٌّ على شدة التمسك بها.

وفي الحث على التمسك بسُنَّة النبي ﷺ تحذيرٌ ممن تنكبوا سواء السبيل، وأرادوا أن يُشكِّكوا الأمة في ثوابتها، فأنكروا العمل بسُنَّة النبي ﷺ، وادَّعوا التمسك بما جاء في القرآن، والقرآن منهم براء؛ لأن القرآن الكريم أوجب طاعة النبي ﷺ في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، بل إن القرآن الذي يدَّعون التمسك به نفى الإيمان عمن رفض طاعة الرسول ﷺ ولم يقبل حكمه، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. ثم يُسأل هؤلاء: أين تجدون في القرآن ما يدل على عدد ركعات الصلوات الخمس؟ وعلى أنصبة الزكاة، وعلى تفصيل أعمال الحج، إلى غير ذلك من الأحكام التي لا يمكن معرفتها إلا بالسُّنة؟!

وما دعوى هؤلاء الاقتصار على ما جاء في القرآن إلا ذريعةٌ ليتأولوا القرآن الكريم على أهوائهم كيف شاءوا، ولهذا لما قيل لمُطَرِّف بن عبد الله بن الشخير - رحمه الله -: "لا تُحدِّثونا إلا بالقرآن" قال: "والله ما نريد بالقرآن بدلاً، ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منّا" يعني رسول ﷺ.

وقد نبأنا نبينا ﷺ من أخبارهم، وحذرنا منهم لنكون منهم على بينة، قال ﷺ: «يوشك أن يقعد الرجل مُتَكِنًا على أريكته، يُحدِّثُ بحديثٍ من حديثي فيقول: بيننا

وبينكم كتابُ الله، فما وجدنا فيه مِنْ حلالٍ استحللناه، وما وجدنا فيه مِنْ حرامٍ حرّمناه،
 قال ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ مِثْلَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ».
 وفي رواية: «أَلَا وَإِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ».

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

